«مرسومة ببراعة... رواية هادئة لكنها تدمر القلوب» - أيريش إكزامنر

ماركو بالزانو

سأبقى هنا

رواية

مكتبة
Telegram Network

حصلت هذه الرواية المتميزة على الجوائز الآتية:

- جائزة باجوتا - أقدم جائزة أدبية في إيطاليا
- جائزة إلبا الأدبية
- جائزة أستي دابللو
- جائزة مينرفا
- جائزة دولوميتي يونسكو الخاصة
- جائزة فيادانا
- جائزة لاتسيانا
- اختيار الشباب لجائزة أومنيا
- جائزة ماريو ريجوني شترن الأدبية لدول جبال الألب
- جائزة البحر المتوسط الأدبية الفرنسية
- القائمة النهائية لجائزة ستريجا
- القائمة القصيرة لجائزة كامبيلُّو الأدبية المرموقة
- القائمة القصيرة لجائزة فِمينا الأدبية الفرنسية

ماركو بالزانو

سأبقى هنا

رواية

ترجمتها عن الإيطالية
أماني فوزي حبشي

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٢
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٢
المؤلف: Marco Balzano
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
حقوق الترجمة © أماني فوزي حبشي
Copyright © 2018 Marco Balzano
Originally published as *Resto qui* in Italy in 2018 by Giulio Einaudi editore, Torino.
This edition is published in agreement with Piergiorgio Nicolazzini Literary Agency (PNLA)

تُرجم هذا الكتاب بدعم للترجمة من وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية
Questo libro è stato tradotto grazie a un contributo per la traduzione assegnato dal Ministero degli Affari Esteri e della Cooperazione Internazionale italiano.

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

سأبقى هنا: رواية / ماركو بالزانو؛ ترجمتها من الإيطالية أماني فوزي حبشي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٢.

تدمك: 9789778625523
١- القصص الإيطالية.
أ- حبشي، أماني فوزي (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٢٨٠ / ٢٠٢٢

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

المحتويات

حصلت هذه الرواية المتميزة على الجوائز الآتية:

الجزء الأول الأعوام

الفصل الأول

الفصل الثاني
الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الجزء الثاني الهروب

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الجزء الثالث المياه
الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
ملحوظة
شكر وعرفان
المؤلف
المترجمة
ترجمات الكرمة
الهوامش

«مكتبة ♔ النخبة»

سأبقى هنا

لا تستمر قصةٌ ما إلا في الرماد.

مونتاله

الجزء الأول

الأعوام

الفصل الأول

لا تعرفين شيئًا عني، أو ربما تعرفين كل شيء لأنك ابنتي. رائحة جلدكِ، ودفء أنفاسكِ، وأعصابكِ المشدودة، أنا منحتُها لكِ. لذلك سأتحدث معكِ كالذي يتحدث إلى من رآه من الداخل.

أعرف كيف أصفكِ بالتفاصيل الدقيقة، بل في بعض الصباحات التي يرتفع فيها الثلج ويلتف المنزل بصمت يقطع الأنفاس يستحضر ذهني تفاصيل جديدة. منذ بضعة أسابيع تذكرت شامة صغيرة على كتفك كنت تشيرين إليها دائمًا وأنا أغسِّلك في حوض الاستحمام، وكانت تستحوذ عليك. أو تلك الخصلة خلف أذنك، الوحيدة من شعرك ذات اللون العسلي.

أُخرج الصور القليلة التي احتفظتُ بها بحرص، مع الوقت أصبحت دمعتي سهلة، وأنا أكره البكاء. أكره البكاء لأنه للحمقى، ولأنه لا يعزِّيني. لكنه فقط يشعرني بأنني مجهدة، ولا تكون لديَّ الرغبة في تناول الطعام ولا حتى ارتداء ملابس النوم قبل أن أنام. ولكن لا بد أن يعتني المرء بنفسه، لا بد من أن يُقوي قبضته حتى عندما تغطي البقع جلد اليدين. لا بد من الكفاح على الرغم من كل شيء. هكذا علمني أبوكِ.

كل تلك الأعوام تخيلتني دائمًا أمًّا صالحة، واثقة، لماحة، ودودًا. صفات كانت تناسبني بالفعل. في البلدة ما زالوا يطلقون عليَّ لقب «السيدة المُعلِّمة»، ولكنهم يحيونني من بعيد، يعلمون أنني لست شخصًا اجتماعيًّا. أحيانًا تعود إلى ذهني اللعبة التي كنت أجعل تلاميذ الصف الأول الابتدائي يلعبونها: «ارسموا أكثر حيوان يشبهكم». الآن سأميل إلى رسم سلحفاة رأسها داخل الصدفة.

أحب أن أفكر بأنني لم أكن أمًّا فضولية. لم أكن سأسألكِ، كما كانت تفعل أمي دائمًا: «مَن هذا ومَن ذلك الآخر، إذا كنت تصغين إليه أو إذا كنت تريدينه أن يخطبك». ولكن ربما ما أقوله ليس سوى قصة من القصص التي أحكيها، وأنك لو كنتِ معي الآن لكنت أمطرتك بالأسئلة، وأنا أنظر إليك بريبة مع كل إجابة مراوغة. كلما مرت الأعوام تضاءل شعورنا بأننا أفضل من والدينا. إذا أردت أن أعقد مقارنات الآن، سأجد نفسي في وضع خاسر بالتأكيد. فجدتكِ كانت حادة وقاسية، وكانت لديها أفكار واضحة حول كل شيء، وكانت تستطيع أن تميز بسهولة بين الأبيض والأسود، ولم يكن لديها أي مشكلة في استخدام الحلول القاطعة. أما أنا فلقد ضعت على سلم من الدرجات الرمادية. في رأيها كان ذلك بسبب التعليم. كانت تعتقد أن أي شخص تعلَّم هو شخص صعب بلا جدوى.

شخص عاطل، متحذلق، شخص يقسم شعره إلى أربعة أجزاء. أما أنا فقد كنت أعتقد أن أعظم المعارف، بالنسبة إلى المرأة بصفة خاصة، هي الكلمات. الأحداث والقصص والخيالات، أهم شيء هو التوق إليها والاحتفاظ بها قريبة كلما تعقدت الحياة أو أوحشت. كنت أعتقد أن الكلمات قادرة على إنقاذي.

الفصل الثاني

لم أعبأ عادة بالرجال. كانت فكرة أنهم على صلة بالحب تبدو لي سخيفة. بالنسبة إليَّ كانوا أفرادًا حمقى جدًّا، أو يغطيهم الشعر، أو خشنين للغاية. وأحيانًا الثلاثة معًا. وفي هذه الأنحاء يمتلك الجميع قطعة أرض وبعض الحيوانات، وكانت تلك هي الرائحة التي تظل على أجسادهم، رائحة الحظائر والعرق. إذا استلزم الأمر أن أتخيل نفسي أمارس الحب، كنت أفضل امرأة. فالعظام الحادة في وجه فتاة أفضل من الجلد الخشن لرجل. ولكن الأفضل من الحالتين هو أن أعيش بمفردي، من دون أن أعبأ بأحد. وفكرة أن أصبح راهبة لا تضايقني البتة. فكرة أن أتغرب عن العالم تحمسني أكثر من فكرة تكوين عائلة. ولكن الرب بالنسبة إليَّ كان موضوعًا صعبًا جدًّا، عندما يخطر في بالي أشعر بالضياع.

الوحيد الذي نظرت إليه كان إيريش. كنت أراه وهو يمر فجرًا، بشعره المنسدل على جبهته والسيجارة على جانب فمه في تلك الساعة. في كل مرة كنت أريد أن أطل من النافذة لأحييه، لكنني لو فتحتها ستشعر أمي بالبرد وبالتأكيد ستصرخ فيَّ لأغلقها على الفور.

كانت ستصيح: «ترينا، هل جننت؟!».

كانت أمي تصيح دائمًا. ولكن حتى لو استطعت أن أفتح تلك النافذة، ماذا كنت سأقول له؟ في عمر السابعة عشرة كنت خرقاء بعض الشيء وأقصى ما أستطيعه هو التلعثم. وهكذا أمكث لأشاهده وهو يبتعد نحو الغابات، بينما جراو، كلبه المغطى بالبقع، يدفع القطيع أمامه. عندما يصحب بقراته، كان إيريش يجر نفسه ببطء شديد، ويبدو ساكنًا. عندئذٍ كنت أحني رأسي على الكتب، واثقة بأنني سأراه مرة أخرى في المكان نفسه، وعندما كنت أرفعه يصبح صغيرًا جدًّا في نهاية الطريق، أسفل أشجار «اللاركس» التي لم يعد لها وجود.

في ذلك الربيع كنت أجد نفسي دائمًا أكثر مع الكتب المفتوحة والقلم في فمي وأنا أتخيل إيريش. عندما لا تكون أمي قريبة مني، كنت أسأل أبي إذا كانت حياة الفلاحين هي أسلوب حياة للحالمين. فبعد حراثة البستان يمكن الذهاب مع الحيوانات للجلوس على صخرة والمكوث في صمت لمشاهدة النهر الذي ينحدر بهدوء منذ كم قرن من يدري، والسماء الباردة التي لا يعرف أحد أين تنتهي.

«يمكن للفلاحين أن يفعلوا كل هذا، أليس كذلك يا بابا؟».

وكان أبي يقول ضاحكًا، والغليون بين أسنانه: «اذهبي لتسألي هذا الفتى الذي تراقبينه في الصباح إذا كان عمله مناسبًا للحالمين».

المرة الأولى التي تحدثت فيها معه كانت في فناء المزرعة. كان أبي يعمل نجارًا في بلدة ريزيا، ولكن أيضًا منزلنا كان يبدو كورشة. كان الناس الذين يحتاجون لإصلاح أي شيء يترددون عليه. عندما يرحل الضيوف تتأفف أمي بأنه لا يمكن أبدًا المكوث في سلام. عندئذٍ كان هو، الذي لا يحتمل أي توبيخ، يجيبها بأنه لا يوجد شيء يستدعي التذمر لأن صاحب الورشة يعمل أيضًا عندما يقدِّم شرابًا ما أو يتحدث قليلًا، بل إنه يربح الزبائن بهذه الطريقة. وكانت هي لكي تقطع النقاش تشد أنفه، ذلك الأنف البارز الذي كان لأبي.

وكانت تقول له: «لقد ازداد طوله».

فكان يجيبها: «أما أنت فقد ازداد حجم مؤخرتك!».

عندئذٍ تشتعل أمي غضبًا: «لم أتزوج سوى شخص سوقي!».

ثم تقذفه بالمنشفة. فيضحك أبي ويقذفها بقلم رصاص، وتقذفه هي بمنشفة أخرى، وهو بقلم رصاص آخر. بالنسبة إليهما كان التقاذف بالأشياء تعبيرًا عن الحب.

تلك الأمسية كان إيريش وأبي يدخنان ويشاهدان بعيون كسول السحب المتساقطة على جبال الألب الشرقية. قال أبي لنا أن ننتظره لحظة ليذهب ويتناول كأسًا صغيرة من «الجرابَّا». كان إيريش شخصًا، بدلًا من أن يتحدث، يرفع ذقنه ويشير بابتسامة رقيقة، بثقة تشعرني بالضآلة.

سألني:

ـ ماذا ستفعلين بعد انتهاء الدراسة؟ ستدرِّسين؟

أجبته، في محاولة تكوين عبارة تناسب الكبار:

ـ ربما. وربما سأرحل بعيدًا.

عندما قلت هذا أظلم وجهه على الفور. شد دخان سيجارته بقوة وكادت الشعلة تحرق أصابعه.

قال مشيرًا إلى الوادي:

ـ أنا لا أريد أبدًا أن أرحل من بلدة كورون.

عندئذٍ نظرت إليه وكأنني طفلة نفدت لديها الكلمات، وربت إيريش على وجنتي ليحييني: ـ قولي لأبيك إنني سأشرب «الجرابَّا» في يوم آخر.

أومأت برأسي موافقة، من دون أن أعرف ماذا أضيف. وجلست واضعة مرفقَي على الطاولة وأنا أتبعه بنظري وهو يرحل. ومن حين إلى آخر كنت ألتفت ناحية الباب لأنني شعرت بالخوف من أن تدخل أمي فجأة. أحيانًا يُشعركِ الحب بأنكِ لصة.

الفصل الثالث

في ربيع عام ١٩٢٣ كنت أستعد لامتحان الثانوية. انتظر موسوليني بالتحديد مدة التخرج ليقلب حال المدرسة. العام السابق كانت المسيرة نحو مدينة بولزانو، ودمرها الفاشيون. أشعلوا النيران في المؤسسات العامة، داسوا الناس، طردوا العمدة، وكالعادة بقي عساكر الشرطة ليراقبوا الموقف. ولو لم يظلوا مكتوفي الأيدي كما فعل الملك لما انتشرت الفاشية. حتى اليوم أشعر بالاضطراب عندما أسير في بولزانو. كل شيء يبدو عدائيًّا، علامات العقدين التي حكم فيهما الفاشيون متعددة، وعندما أراها من جديد أتذكر إيريش والغضب يلتهمه.

حتى تلك اللحظة، وخاصة في تلك الوديان الواقعة على الحدود كانت الحياة يحددها إيقاع الفصول. وكان يبدو أن التاريخ لن يصل إلى المناطق العالية أبدًا، كالصدى الذي يتلاشى بعيدًا. كانت اللغة هي الألمانية والديانة هي المسيحية، والعمل هو ذلك الذي يجري في الحقول وفي الحظائر. لم تلزم إضافة أي شيء لفهم ناس الجبل، الذين أنتِ أيضًا واحدة منهم، لا لسبب سوى أنك وُلدتِ هنا.

أعاد موسوليني تسمية الطرق والأنهار والجبال، بل شوَّه هؤلاء القتلة أيضًا الموتى، وغيروا الوصف المكتوب على شواهد القبور. فلقد حولوا أسماءنا إلى الإيطالية، وبدلوا لافتات المتاجر، منعونا من ارتداء أثوابنا المميزة. وبين يوم وآخر وجدنا مدرسين من مقاطعات فينيتو ولومبارديا وصقلية. لم يفهمونا، ولم نفهمهم. كانت اللغة الإيطالية هنا في جنوب تيرولو لغة غريبة، نسمعها عبر بعض أجهزة الجرامافون أو عندما كان يصل إلينا بائع من بلدة فالّارسا يصعد طريق الترنتينو ليتاجر في النمسا.

ترك اسمكِ المتميز جدًّا بَصمته على الفور، ولكن بالنسبة إلى من لم يتذكره كنت دائمًا ابنة إيريش وترينا. كانوا يقولون إننا متشابهتين جدًّا.

يتمتم الخباز:

ـ إذا ضلت الطريق، سيعيدها أحدهم إلى منزلك.

بينما يحييكِ بابتسامة من فمه الخالي من الأسنان. أتتذكرين؟ عندما كنت تشتمِّين رائحة خبز «البانيوتا»، كنت تجُرِّينني من يدي لأبتاع لك واحدًا. لم يكن يعجبكِ شيء أكثر من الخبز الساخن.

كنت أعرف سكان كورون فردًا فردًا، ولكن صديقاتي كن فقط مايا وباربارا. الآن لم تعودا تسكنان هنا. رحلتا منذ أعوام بعيدة، ولا أعرف حتى إذا ما زالتا على قيد الحياة. كنا مقرَّبات جدًّا حتى إننا اخترنا الذهاب إلى المدرسة نفسها. لم نستطع الانتظام في الذهاب إلى معهد إعداد المعلمين حيث كان بعيدًا جدًّا، ولكن تلك المرة، في السنة التي ذهبنا فيها إلى بولزانو لنؤدي الامتحانات كانت مغامرة بالنسبة إلينا. تجولنا متحمسات في شوارع المدينة، فنحن أخيرًا نرى العالم فيما وراء المراعي والجبال، نرى البنايات والمحال والطرق المزدحمة.

كنت أنا ومايا لدينا بالفعل الرغبة الشديدة في التدريس، وكنا نتوق إلى الساعة التي سندخل فيها الفصل. أما باربارا فكانت ترغب في أن تعمل في الحياكة، ولكنها التحقت بالمعهد، هي أيضًا، «لنقضي معًا مزيدًا من الوقت» كما كانت تقول. في تلك الأعوام كانت كظلي. كنا نقضي الوقت في اصطحاب كل منا إلى منزل الأخرى. أمام باب المزرعة كانت الواحدة منا تقول للأخرى: «انظري، ما زال هناك نور، سأصحبك أنا».

كنا نذهب في نزهات طويلة جدًّا، نسير بالقرب من النهر أو نصل إلى بداية الغابة، وفي تلك الجولات، أتذكر أن باربارا كانت تردد دائمًا: «آه لو لديَّ طبعك...».

«ولكن لماذا، أي طبع لي؟».

«حسنًا، لديك الأفكار واضحة، وتعرفين إلى أين تريدين الوصول. أما أنا فأشعر بالارتباك أمام كل شيء وأبحث دائمًا عن أحدهم ليساعدني».

«لا أرى أن ما أنا عليه قد جلب لي أي خير».

«أنت تقولين هذا لأنك لا تشعرين بالرضا بسهولة».

أقول وأنا أهز كتفَي: «على كل حال، يمكنني أن أتخلى عن طبعي هذا على الفور إذا أصبحت جميلة مثلك».

عندئذٍ كانت تبتسم، وإذا لم يكن هناك أحد في الجوار، أو إذا أظلمت السماء بعض الشيء، تمنحني قبلة وتبدأ في قول كلمات عذبة، لم أعد أتذكرها.

مع وصول «الدوتشي» كان من الواضح أننا، في الغالب، لن نحصل على عمل، لأننا لسنا إيطاليات، وهكذا أخذنا نحن الثلاثة في دراسة اللغة الإيطالية على

أمل أن يوظفونا. كنا نقضي فترات بعد الظهر خلال هذا الربيع مع كتب النحو على شاطئ البحيرة. نتقابل بعد الغداء ونصل إلى هناك، منا من تحمل الفاكهة في مفرش ومن لا تزال لقمة طعام في حلقها.

كنت أقول لأدعوهما إلى النظام: «يكفي الآن التحدث بالألمانية!».

تعترض مايا وهي تصفق دفترها المليء بالشخبطة: «أود أن أصبح مدرسة، ولكن ليس لأُعلم لغات الآخرين!».

ترد باربارا: «وماذا عني؟ فأنا أردت أن أصمم الملابس».

تؤكد مايا: «اسمعي لم يأمرك الطبيب بالعمل مُدرسة».

ثم تعترض وهي تضفر تلك الكومة من الشعر الأحمر التي تتساقط في كل مكان: «ولكن لنسمع تلك الأفعى... ماذا تقصدين بأن الطبيب لم يأمرني بذلك؟».

ثم تعيد الهجوم بقصة أننا لا بد أن نذهب لنعيش معًا، وألا نتزوج، وتختتم بهذه العبارة، وهي مقتنعة: «اسمعاني، إذا تزوجنا سنصبح خادمات!».

عندما أعود إلى المنزل أذهب على الفور لأنام. كنت دائمًا جائعة للوحدة، أتدثر في فراشي وأمكث في ظلام الغرفة الرطب وأنا أفكر. أفكر بأنني أردت أو لم أرِد فأنا أتقدم في السن، وهذا يسبب لي الاضطراب. لا أعرف إذا راودتك تلك المخاوف أنت أيضًا أو إذا تشبهين أباكِ الذي يرى الحياة كالنهر. أما أنا فعند اقتراب أي تغيير أو هدف ما، سواء يتعلق بالشهادة الدراسية أم الزواج، أشعر برغبة شديدة في أن أهرب أو أن أنهي كل شيء. لماذا تعني الحياة ضرورة التقدم للأمام؟ حتى عندما أنجبتك فكرت: لماذا لا أستطيع أن أحتفظ بها في الداخل أطول مدة ممكنة؟

في شهر مايو كنت أنا ومايا وباربارا نبقى معًا أيضًا خلال الأسبوع، لم يعُد الأمر مثل الأعوام السابقة عندما كنا نلتقي مرة من حين إلى آخر أو نذهب إلى القداس أيام الأحد. كنا نمارس تلك اللغة الغريبة، ونحن على أمل أن يهتم الفاشيون بعض الشيء بالتزامنا هذا وبشهادتنا. ولكن نظرًا إلى أننا في حقيقة الأمر لم نكن نصدق هذا بدورنا، كنا بدلًا من أن نستذكر النحو نجلس في دائرة للاستماع إلى أسطوانات الأغاني الإيطالية التي تملكها باربارا: سأعطيك قبلة

وستعود إلى هنا

ٍ

ولكنني لن أقبلك

إذا ذهبت إلى الحرب

وقبل الامتحانات الخطية بأسبوع، سمح لي أبي بأن أقضي الليلة في بيت باربارا. لم يكن يرغب في هذا ولكن في النهاية استطعت إقناعه.

ـ حسنًا يا بنيتي، يمكنك المكوث لدى صديقتك ولكن لا بد من أن تكون النتيجة مُشرفة.

سألته بعد أن قبلته على وجنته:

ـ وما معنى نتيجة مُشرفة بالنسبة إليك؟

قال فاتحًا يديه:

ـ حسنًا، نتيجة يكون المتوسط فيها عشرة!

أمي أيضًا التي تجلس بجواره ترفو الجوارب، أومأت بالإيجاب. كانت، كلما سنح الوقت لها، تلفق الجوارب، لأنها تقول إن البرد في القدمين هو برد في الجسم كله.

ولكنني لم أستطع أن أحصل على الدرجات الكاملة. مَن دفَع ثمن المشروبات وأعد لنا الفطيرة، كما تعاهدنا في بداية الدراسة، كانت مايا. حتى وإذا كان رأي باربارا أنها حصلت على عشرة لأن الأستاذ الممتحن كان خنزيرًا وكان ينظر إلى صدرها.

اعترضت وهي ترفع نهديها وتزنهما بين يديها: ـ لم أحصل إلا على سبعة لأنني لا أملك سوى هاتين التفاحتين الصغيرتين.

أجابتها مايا:

ـ حصلت على سبعة لأنك حمارة!

وعلى الفور أمسكت بها الأخرى وأخذتا تتدحرجان على العشب. كنت أنظر إليهما وأنا أضحك، وعيناي شبه مغلقتين من ضوء الشمس.

الفصل الرابع

بعد أن تخرجنا وجدنا أنفسنا مرة أخرى على شاطئ البحيرة وتحت أشجار «اللاركس»، ولكن لم يكن أحد يتحدث عن دراسة اللغة الإيطالية.

قالت مايا بسرعة:

ـ إذا عينونا في المدرسة، فهذا جيد، وإذا لم يفعلوا، فليذهبوا إلى الجحيم!

قالت باربارا:

ـ لا أحد هنا لديه شهادة، لا بد أن يعينونا.

ـ هل تعتقدين أن الفاشيين سيهتمون بهذه القطعة الورقية؟ لا يهمهم سوى تشغيل الإيطاليين.

ـ سينتهي الأمر بأن نكون قد درسنا بلا فائدة.

قالت مايا بضيق:

ـ سيكون عليَّ أن أذهب إلى المتجر مع أبي ولن نتوقف عن الشجار.

رددتُ أنا:

ـ سيكون أفضل من البقاء في المنزل لترقيع الجوارب.

حيث إنني بمجرد أن تراودني فكرة أنني سأقضي أيامي مع أمي، أشعر بالاختناق.

لم يحتل الفاشيون المدرسة فقط، بل أيضًا مكاتب البلدية والبريد والمحاكم. أقالوا الموظفين من تيرولو فورًا، وعلق الإيطاليون لافتات في مكاتبهم يقولون فيها: ممنوع التحدث بالألمانية

وأيضًا:

موسوليني دائمًا على حق

وفرضوا حظر التجول، والاحتشاد في ظهيرة السبت لمرور «البوديستا»(1)، والعطلات الإجبارية.

كانت مايا تقول: «أشعر بأنني أسير في حقل ألغام».

كانت تتعب سريعًا من ثرثرتنا، التي تنتهي عادة بأشياء ليست ذات أهمية، وتصيح بضجر: «ألا تريان حقيقة ما يحدث؟ كورون، ريزيا، سان فالانتينو. منذ أن وصل الفاشيون لم يعد هناك ما يخصنا. لم يعد الرجال يذهبون إلى الحانة، بينما تسير النساء ملتصقات بالجدران، وفي المساء لا تسير نفسٌ واحدة! كيف تتعاملان مع كل هذا باستخفاف؟».

تجيبها باربارا في محاولة لتهدئتها: «أخي يقول إن الفاشية أيامها معدودة».

ولكن مايا لا تهدأ مطلقًا، تشخر كالحصان وتترك نفسها لتسقط بظهرها على العشب وهي تقول إننا لسنا سوى متعجرفتين.

تلقت هي تربية مختلفة عن تربيتنا. فأبوها رجل متعلم يقضي الساعات يشرح لأبنائه من هذا الحاكم، ومن ذلك الوزير، وإذا وجدني أنا وباربارا أيضًا في المنزل كان ينطلق في أحاديث طويلة يسرد فيها علينا العديد من الأسماء والمواقع التي لم نسمع عنها قَطُّ ولا حتى بالمصادفة. في النهاية يحذرنا بهذه العبارة: «عندما تتزوجان قولا هذا لزوجيكما، وتذكراه أنتما أيضًا، إذا لم تهتموا بالسياسة، ستحتلكم السياسة!»، وينسحب إلى غرفته. كانت مايا تعبد أباها وبمجرد أن ينتهي من التحدث تشير برأسها دائمًا بالموافقة المطيعة، في حين ننظر أنا وباربارا من النافذة إلى الخارج لأننا نشعر بأننا كالماعز لا نفقه شيئًا.

تقول باربارا ونحن في طريقنا إلى المنزل:

ـ بهذا الإيقاع ستصبح مايا أكثر تشددًا من أبيها.

أحيانًا كنت أنا وباربارا نخرج بمفردنا. نركب دراجتينا ونصل حتى سان فالانتينو، كنا نقود بمحاذاة البحيرة ونشعر ببرودة المياه التي تلتصق بوجهينا المبللين بالعرق.

تقول وهي تبدِّل وذقنها مرتفع: «يبدو لي أن الجبال تكبر معنا».

أسألها أنا حيث أريد يومًا أن أهرب، ويومًا آخر أن أختبئ في المنزل: «هل تعتقدين أنها تحجب عنا العالم؟».

تجيبني ضاحكة: «وماذا يهمك من العالم؟».

عندما يعود أبي من الورشة، يردد أنه ما زلنا نشتم رائحة الحرب من حولنا. والدا مايا يقولان إنه من الأفضل الرحيل إلى النمسا، بعيدًا عن الفاشيين. أما والدا باربارا فيرغبان في اللحاق بعائلتهما في ألمانيا.

حتى التركيب السكاني لجنوب تيرولو، في ذلك الوقت، بدأ يتغير. مع مرور الشهور استمر وصول جاليات من الإيطاليين الذين أرسلهم «الدوتشي». حتى هنا في كورون وصلت إحداها. كنت تستطيع أن تتعرف عليهم على الفور أولئك الأجانب الوافدين من الجنوب، حقائبهم في أيديهم وأنوفهم مرتفعة للنظر إلى قمم الجبال التي لم يروها قَطُّ، والسحب القريبة جدًّا.

كنا نحن ضدهم منذ البداية. لغة الواحد ضد الآخر، غلبة السلطة المفاجئة في مقابل من يُطالب بجذور عمرها قرون.

كان إيريش يمر كثيرًا على منزلنا، كان صديقًا لأبي منذ زمن: يحبه أبي لأن إيريش بلا أبوين.

ولكن لم يكن يعجب أمي كثيرًا. تقول: «هذا الفتى متعجرف، يبدو كأنه يقدم لك خدمة بالتحدث إليك»، فهي تتوقع من الآخرين تدفق العواطف الذي تفتقده في نفسها.

يجلسه أبي على المقعد الخشبي، ثم يدير كرسيه ويثبت كوعيه على المسند، ويضع بين يديه وجنتيه الملتحيتين. يبدو إيريش كابنه. ابن قلق، يسأله النصح في كل شيء. أراقبهما من خلف فتحة الباب. أحاول أن أرفع نفسي بأن أكتم أنفاسي، وألصق راحتَي يدَي على الجدار. إذا دخل أخي بابي أسحبه جانبًا وأضع يدي على فمه. يحاول أن يفلت مني ولكن في ذلك الوقت كنت أستطيع منعه من الحركة. بابي أصغر مني بسبع سنوات، ولا أعرف ماذا أقول عنه سوى أنه مدلل أمي. لم يكن سوى طفل مزعج ذي ركبتين مقشورتي الجلد.

في إحدى الأمسيات قال إيريش:

ـ يبدو أن الحكومة الإيطالية ترغب في أن تضع يدها على مشروع السد. بعض الفلاحين الذين يأخذون حيواناتهم ناحية سان فالانتينو شاهدوا وصول فرق عمل.

ضم أبي كتفيه وأجاب بابتسامة هادئة:

ـ يقولون هذا منذ أعوام، لكن لا يفعلون شيئًا.

قال إيريش:

ـ إذا كانوا سيبنونه بالفعل علينا أن نعثر على طريقة لمنعهم.

ثم أكمل وهو ينظر بعيدًا:

ـ الفاشيون لديهم رغبة شديدة في تدميرنا وتشريدنا في أنحاء إيطاليا.

ـ لا تقلق، حتى لو استمرت الفاشية، لا يمكن أن يبنوا سدًّا هنا، فالأرض طينية.

ولكن عينَي إيريش الرماديتين ظلتا قلقتين كعينَي قِط.

أعلنوا عن السد للمرة الأولى عام ١٩١١. كان مقاولون من شركة «مونتيكاتيني» يرغبون في إجلاء مواطني ريزيا وكورون للاستفادة من تيار النهر المائي في إنتاج الطاقة. كان رجال الصناعة والسياسيون الإيطاليون يقولون إن إقليم ألتو أديجي منجم للذهب الأبيض ودائمًا ما يرسلون مهندسين لفحص الأودية ولجس مسارات الأنهار. ستختفي بلادنا تحت قبر مائي. المزارع والكنيسة والمتاجر، والحقول التي ترعى فيها الحيوانات: سيغرق كل شيء. مع السد سنفقد المنازل والحيوانات والعمل. مع السد لن يبقى منا أي شيء. علينا الهجرة، علينا أن نصبح شيئًا آخر. طريقة أخرى لنربح معيشتنا، في مكان آخر، لنصبح شعبًا آخر. وسنموت بعيدًا عن وادي فانوستا وعن تيرولو.

في عام ١٩١١ لم يُنفذ المشروع لأنهم اعتبروا الأرض خطيرة، فلم تكن متماسكة، إذ كانت مكونة فقط من بقايا صخور «الدولوميت». لكن بعد وصول الفاشية إلى السلطة عرف الجميع أن «الدوتشي» سيعمل على الفور على بناء أعمدة صناعية في بولزانو وميرانو ـ تلك المدينتان سيتضاعف حجمهما أو سيصبح ثلاثة أضعاف، ومن ثَم ستصل إليهما حشود الإيطاليين بحثًا عن عمل ـ والطلب على الطاقة سيزداد بدرجة هائلة.

وهناك في الحانة، وفي فناء الكنيسة، وفي ورشة أبي، كان إيريش يبح صوته: «احذروا فإنهم سيعودون. كونوا متأكدين أنهم سيعودون من جديد».

وبينما هو ينهج، يستمر الفلاحون في الشرب والتدخين ولعب الورق. ثم ينهون الحوار بضم شفاههم أو بتحريك أياديهم في الهواء كمن يطرد الذباب.

يقول إيريش لأبي:

ـ إن ما لا يرونه لا وجود له. أعطِهم كأسًا من النبيذ فلا يفكرون في أي شيء آخر.

الفصل الخامس

عوضًا عن اختيارنا عيَّنوا بدلًا منا أنصاف متعلمين صقليين ومن أرياف البندقية. في نهاية الأمر تعليم أطفال تيرولو هو آخر ما يهم «الدوتشي».

كنا ثلاثتنا نقضي أيامنا نسير باكتئاب عبر الميدان المزدحم، بينما يستمر الباعة الجائلون في الصياح حتى المساء وتتجمع النساء حول عربات البيع.

في صباح أحد الأيام وجدنا أنفسنا أمام القس الذي دفعنا في حارة فارغة تلطِّخ الطحالب جدرانها. قال إننا إذا أردنا التدريس بالفعل لا بد أن نذهب إلى سراديب الموتى. والذهاب إلى المدافن يعني أن نعمل مدرسات في الخفاء. كان هذا أمرًا غير قانوني، ويعني الغرامات، والتعرض للضرب وزيت الخروع(2). ويمكن أيضًا أن ينتهي أمرنا على الحدود فوق إحدى الجزر النائية. رفضت باربارا على الفور، ونظرت أنا ومايا إحدانا إلى الأخرى في تردد.

اندفع القس قائلًا:

ـ لا يوجد وقت للتفكير.

عندما تحدثت عن الأمر في المنزل، بدأت أمي تصيح بأنني سأنتهي بالذهاب إلى صقلية في وسط الزنوج. ولكن أبي قال إنني سأصنع خيرًا. في الواقع لم أكن أرغب في الذهاب، حيث لم أكن قَطُّ شجاعة، ولكنني ذهبت لأبدو جميلة في عينَي إيريش. فقد سمعته يتحدث بأنه يتابع التجمعات السرية، ويزودها بالصحف الألمانية، وأنه جزء من نادٍ يدعم الانضمام إلى ألمانيا. وكان التدريس في المدافن يبدو لي طريقة جيدة لأترك لديه انطباعًا جيدًا، بالإضافة إلى هذا سيساعدني أن أفهم إذا كان التدريس هو بالفعل كما تخيلته.

سلمني القس قبوًا في سان فالانتينو، ومايا حظيرة في ريزيا. كنت أذهب في الساعة الخامسة بعد الظهر تقريبًا، حينما يحل الظلام، أو أيام الآحاد قبل القداس وكان ظلامًا أيضًا. أبدِّل الدراجة حتى أفقد أنفاسي، وأسير في شوارع قذرة لم أعرف سابقًا بوجودها. أكاد أصرخ بمجرد أن تتحرك ورقة شجرة أو يصفِّر جدجد. أترك الدراجة خلف أحد أحراش البلدة قبل أن تبدو لناظري، وأسير على قدمَي برأس منحنٍ حتى لا ألتقي بأي عسكري. آنذاك كان يبدو لي أن عدد العساكر الملاعين في الجوار أكثر من عدد العث، كنت أراهم في كل مكان.

في قبو السيدة مارتا كنا نرص البراميل الخشبية والأثاث القديم ونجلس على أكوام من القش. كنا نهمس لأننا لا بد أن ننتبه للأصوات الآتية من الخارج. عادة يكفي صوت بضع خطوات في الممر لنُصاب بالفزع. كان الأولاد الصغار أقل وعيًا من البنات اللاتي كن ينظرن إليَّ بعيون مفزوعة. كان عددهم سبعة وعلمتهم القراءة والكتابة. آخذ أيديهم وأمسكها بيدي، كالقوقعة. أقودهم في رسم حروف الأبجدية، والكلمات، والعبارات الأولى. في البداية بدا الأمر مستحيلًا، ولكن بعد ذلك، من عشية إلى أخرى، أصبحوا قادرين على تكوين المقاطع ببطء، وقراءتها بصوت مرتفع، كل واحد بمفرده، وهم يضعون عليها أصابعهم حتى لا يخطئون السطر. كان شيئًا جميلًا تدريسُ اللغة الألمانية. يعجبني جدًّا إلى حد أنني أحيانًا أنسى أنني مدرسة في السر. أفكر في إيريش، سيكون فخورًا عندما يراني هنا، في الأسفل، منهمكة في الكتابة على لوح من «الأردواز»، بحروف وأرقام ينسخها الأطفال ويرددونها معًا بصوت هامس. في طريقي إلى المنزل أترك شعري مسدلًا لأتخلص من الصداع، ولكنه كان أيضًا رفيقًا جيدًا، يصرف انتباهي عن الخوف.

في إحدى الأمسيات اقتحم اثنان من العساكر باب القبو وكأننا خارجون عن القانون. أخذت طفلة تصرخ، وانتشر الآخرون في الزوايا موجهين أنظارهم إلى الجدران حتى لا يرون ما يحدث. وحده سيب بقي في مكانه، ثم اقترب ببطء من أحدهما، سبه بهدوء لن أنساه أبدًا. لم يفهم العسكري الألمانية، ولكنه صفعه بقوة على وجهه. لم يتزحزح الطفل سنتيمترًا واحدًا، لم يبكِ، لم يتوقف عن النظر إليه بحقد.

عندما خرج الجميع، كسر العسكريان اللوح في الجدار، وركلا البراميل، وقلبا الأثاث.

أخذا يصرخان وهما يجرانني إلى مبنى البلدية:

ـ سنلقي بك في السجن!

تركاني طوال الليل حبيسة غرفة فارغة. على الجدار هناك صورة لموسوليني ويداه على جانبيه ونظرته غاضبة. يقولون إنه محبوب جدًّا من النساء وكنت أحاول أن أفهم ما يوجد فيه من وسامة. بمجرد أن أنعس يدخل أحد العساكر ويبدأ في ضرب عصا على الطاولة ليوقظني. يوجهون مصباحًا لوجهي ويرددون: «من يعطيكِ المواد التعليمية؟ أين يختبئ المدرسون السريون الآخرون؟ أبناء من أولئك الأطفال؟».

عندما أتى أبي ليأخذني حلقوا له شاربه، كما يفعلون دائمًا بمن لا يعجبهم. ثم انتزعوا منه حزمة من النقود. شعرت بأنني مجرد خرقة، وبتقلصات في بطني، وبعينيَّ حمراوين بلون الدماء. اعتقدت أن أبي سيأمرني بألا أذهب مرة أخرى، إلا أنه أمام النافورة، وبينما مرر قطعة قماش مبللة على وجهي قال: ـ الآن ليس أمامك سوى الاستمرار.

غيرنا المكان. انتقلنا إلى سقفية أحد زبائن أبي. أتوا جميعهم ما عدا الطفلة التي أخذت تصرخ، لم ترغب قَطُّ في العودة. كان التلاميذ نادرًا ما يملكون بعض الأوراق، وأحيانًا ولا حتى هذه. بعضهم يأتي بورقة منزوعة من الدفتر الذي يستخدمونه في المدرسة الإيطالية، حيث كانوا مجبرين على الذهاب. في نهاية الدرس أخرجهم من الباب الخلفي. إحدى المرات دُق الباب فجأة، صعدنا على السطح، بسرعة الفئران. أمسكتهم جميعًا من ظهورهم خوفًا من أن يتدحرجوا إلى أسفل، لكن صاحبة المنزل جاءت لتقول لنا ضاحكة إنه الفران أحضر لها الخبز.

في الصيف أصبح الأمر أكثر سهولة. كنا نذهب لنعطي الدروس في الحقول، فالشمس وكل ذلك الضوء لا يجعلان أحدًا يفكر في أي شيء سيئ. في الهواء الطلق يمكن أن تتنكر المدرِّسة السرية في لعبة. نظل بالساعات نتدرب على مسرحية لأعياد الميلاد، كنت أريد أن نقدمها في مزرعة مايا، كنا نقرأ بصوت مرتفع حكايات «آندرسن» و«الأخوان جريم»، وأيضًا الأشعار الممنوعة التي أستعيدها من الذاكرة لأنني حفظتها في طفولتي، في مرحلة المدرسة النمساوية. من حين إلى آخر تفزعني ضوضاء قادمة من الطريق، وعندئذٍ يمسك سيب بيدي ويطمئنني بعينيه الباردتين كالثلج. بعدها بأعوام عرفت أن سيب قد أصبح أحد أصغر المعاونين النازيين، كان يصنف المساجين في معسكرات الإبادة في بولزانو.

كنت أحلم بالعساكر وذوي القمصان السوداء كل ليلة. كنت أستيقظ فجأة أتصبب عرقًا وأظل أنظر إلى السقف بالساعات. قبل أن أعاود النوم من جديد أفتش في المزرعة لأتأكد أنهم بالفعل غير موجودين في المنزل. أنظر أيضًا تحت الفراش، داخل الخزانة، وكانت أمي، لأن نومها خفيف، تقول لي من الغرفة الأخرى: «ترينا، هل يمكن أن أعرف لماذا أنت مستيقظة في هذه الساعة؟».

أجيبها: «لا بد أن أتأكد أنه لا يوجد أي عسكري».

«تحت الفراش؟»

«أجل».

عندئذٍ أسمعها وهي تستدير على جنبها، تبرطم أنني تقريبًا جننت.

في ذلك الوقت ازداد عدد المدارس السرية. يُحضر لنا المهربون من بافاريا ومن النمسا الدفاتر وألواح الكتابة. يتركون كل شيء لدى الكهنة، الذين بعد ذلك يوزعون المواد. على الرغم من أن الفاشيين يزرعون لافتات تعلن: ممنوع التحدث بالألمانية

في كل مكان، لم يستطيعوا أن «يُطلينوا» أي شيء على الإطلاق، وأصبحوا دائمًا أكثر عنفًا.

عندما عاد الشتاء، ولكي نخدع العساكر، بدأ الأطفال في التنكر. يحضرون متدثرين في معاطف كمن أصيب بالحمى، أو بزي العمل ارتدوه بعجلة على أحسن حال، أو شديدي الأناقة وكأنهم في طريق لاحتفال أول مناولة... عندما أبدل الدراجة في المساء، ويظهر المنزل أخيرًا، بمصباح «الجازولين» الموقَد خلف الزجاج المُغطى بالدخان، أضحك كمن نجا مرة أخرى.

في أحد الأيام خرجت أنا وباربارا. قبَّلنا بعضنا فوق العشب وبينما نقوم فُتِق ثوبانا. كنا نحب أن نقبِّل بعضنا ولكنني لا أعرف لماذا كنا نفعل هذا. ربما عندما يكون المرء صغيرًا في السن إلى هذا الحد لا يلزمه بالضرورة سبب. نجلس على جذع مقطوع، وكان مع باربارا لفافة من الورق بها رقائق بالشوكولاتة.

حكيت لها وفمي ممتلئ:

ـ إن التدريس بالألمانية يعجبني، ومعرفة أن ما أفعله مناهض للفاشية يعجبني أكثر.

ـ ولكن ألا تخافين؟

ـ في البداية كنت خائفة، الآن تعلمت أن ألاحظ وجوه الأطفال. عندما يكونون مطمئنين أشعر أنا أيضًا بالاطمئنان.

قالت بضيق:

ـ أولئك الملاعين، لم يتركونا ندرِّس ولا حتى يومًا واحدًا.

ـ لماذا لا تأتي أنت أيضًا؟

ـ ترينا، قلت لك، ليست لي شخصيتك. إذا كان قد حدث لي ما حدث لك لمتُّ بالسكتة القلبية.

ـ كان مجرد فزع شديد.

أكملت مدافعة:

ـ أساعدهم الآن في المتجر، وأبي يعتمد على ذلك.

ـ ولكن يمكنك أن تدرِّسي من دون أن تتوقفي عن العمل! يمكنك التدريس عندما يكون لديك بعض الساعات الحرة.

ختمتُ بسرعة:

ـ سترين أن البقاء مع الأطفال سيساعدك، إنهم أفضل بكثير من الكبار.

فكرَت كثيرًا وهي تعض شفتيها، ثم قالت:

ـ حسنًا، ولكن لا تقولي لأحد أبدًا، ولا حتى أبوَي.

عندما تحدثت مع الكاهن وافق على الفور. كانت هناك مجموعة في ريزيا مستعدة لأن تبدأ.

كان لدى باربارا الوقت فقط لتقول لي إنها تتسلى وإنها تحب ما تفعل. كانت إحدى أمسيات يوم الخميس، والأمطار تهطل في كورون. تلك الأمطار المعتادة العرضية لشهر نوفمبر. كنت في المنزل مع بابي، وكنا نعد كرات اللحم.

في الخارج ترك أحدهم الدراجة لتسقط. دق على الباب بقبضته وحاول الدخول.

قالت مايا:

ـ لقد نزلوا إلى هناك إلى أسفل وأخرجوا كل من كان في غرفة المقدسات في الكنيسة، حطموا كل شيء، وطردوا الأطفال ركلًا!

ثم صرخت:

ـ عندما بقيت هي وحدها جروها من شعرها وألقوا بها في السيارة.

استمرت مايا وهي تكاد تلتقط أنفاسها وعيناها غاضبتان: ـ سيرسلونها إلى جزيرة ليباري على الحدود.

لم أستطع حتى أن أسألها إذا ما وضعوا أياديهم عليها. تسمرتُ كما كنت، واللعاب يتخثر في فمي.

على عتبة الباب استمرت الأمطار في الهطول وغمرت وجهي.

الفصل السادس

كان أبي وإيريش يكرران التصرفات نفسها، الثرثرة و«الجرابَّا» والسجائر. أنا أيضًا كنت أردد الحركات نفسها. أختبئ خلف العتبة، وأعيش في خيالاتي، وأهرب إلى المطبخ بمجرد أن ينهض هو ليعود إلى منزله. كل المرات أتظاهر بأنني أطوي المفرش أو أشرب المياه وكأنني ناجية من الصحراء. أفكر في أنني سأستمر بهذه الطريقة إلى الأبد. وفي الواقع لم يكن هذا يضايقني. عندما أراه دائمًا بمفرده، دائمًا على ذلك المقعد، لا أشعر أنا أيضًا بوحدتي. ألا يمكن أن تكون هذه إحدى طرق تبادل الحب؟ أن أنظر إليه خفية من دون أن أوضع على المسرح المعتاد للزواج والأطفال؟

وفي أحد أيام نوفمبر أتى بقطع كبير في فكه، جرح يعبر إلى رقبته وينزل إلى تحت قميصه. يبدو أن أحدهم حاول أن يكسر له رأسه نصفين كالبطيخة. أمسكه أبي غريزيًّا من تحت ذراعيه وأجلسه على المقعد أمام المدفأة.

ـ قضيت تلك الليالي مع مجموعة من الفلاحين المختبئين خلف البلدة. وصل المفتشون الإيطاليون. صرخت: «نحن نسكن هنا منذ قرون، هنا يسكن آباؤنا وأبناؤنا، هنا يوجد أيضًا أمواتنا». عندئذٍ أخرج أحد أولئك الجبناء هراوته، ولكن أحد المهندسين أوقفه وأجابني بأننا يمكننا أن نصل إلى اتفاق ما، وقال لي: «إن التقدم يستحق أكثر من كومة من المنازل».

كنت حزينة وأنا أراه مشوهًا، ولكنني أيضًا سعيدة بالوقوف إلى جانبه أخيرًا، من دون أن أضطر للاختباء. كنت أريد أن أضمد جرحه بالقطن، وأقول له: «استمر في الكلام يا إيريش، وسأعتني أنا بك».

ـ أحدنا صرخ أننا لن نرحل لأي سبب، وأن كل البلدة ستقاوم. وأخذ يصرخ: «سنمسك بمذارينا، ونفتح حظائرنا ونطلق كلابنا». وهكذا وصلت إلينا الضربات والجلدات.

ثم أمسك بجرحه وكأننا من دون هذه الحركة لن نستطيع تصديقه.

كان أبي يستمع إليه فاغرًا فاه.

سألته:

ـ هل تريد أن تبقى معنا لتأكل؟

رمقتني أمي على الفور بنظراتها.

إلا أن إيريش قال إنه يحتاج إلى أن يبقى بمفرده.

بعد الظهر في أحد الأيام ذهبت إلى منزل باربارا. لم أستطع أن أتقبل ـ ونحن نسكن على بعد مائة خطوة إحدانا من الأخرى ـ أنه فجأة لم يعد في إمكاننا أن نتشابك الأيدي أو نتجول معًا. هكذا بعد الغداء وبمجرد أن ذهبت أمي لتستلقي في الفراش، أخذت من على المائدة قطعة حلوى، غلفتها بمفرش صغير وخرجت من المنزل من دون أن أقول لأحد.

وقفت أمام باب المزرعة، يغطيني العرق وغير قادرة على الحركة أو طرق الباب أو أن أنادي اسمها. وقفت أنتظر حتى تطل باربارا من النافذة بجوار الحظيرة كما تفعل عندما لا يعطيها أبواها الإذن بالخروج. في بعض أيام الصيف تتركها مفتوحة وعندما أمُر أناديها بأن أصفِّر لها، وكانت هي تجيبني بصفير آخر ثم بقفزة تصبح في الأسفل وهي تحمل دائمًا مفرشًا تضع بداخله بعض الحلوى نتناولها في الطريق. كانت أختها أليكسندرا تقول إننا أكثر غلظة من الرعاة عندما نصفر بتلك الطريقة.

مكثت، لا أعرف كم الوقت، أمام الباب وقدماي متيبستان، من دون أن أستطيع حتى العودة إلى الوراء. حتى خرجت أليكسندرا. كانت تمسك بحقائب في يدها وعندما رأتني تركتها لتسقط أرضًا.

قلت لها بصوت هامس:

ـ هل يمكنني التحدث مع باربارا؟

نظرت إليَّ أليكسندرا محدقة، لم أعرف إذا كانت تشعر بالاحتقار أم بالدهشة، ثم حركت ذقنها لتشير لي أن أرحل.

سألت من جديد:

ـ هل يمكنني التحدث مع باربارا؟

ـ ليست في المنزل.

ـ تقولين هذا لأنك لا تريدينني أن أتحدث معها.

قالت وهي تضغط شفتيها:

ـ أجل، لا أريد، ولا حتى هي تريد ذلك.

رددت:

ـ أرجوكِ، حتى من هنا، يكفي أن تنظر دقيقة من النافذة.

ـ بسببك سيرسلونها إلى المنفى، أتعرفين هذا؟

مكثنا في صمت، وكأننا متبارزتان. وسمعت ثغاء الماعز من الحظيرة.

صرختُ فيها فجأة:

ـ ابتعدي!

صرختُ مرة أخرى:

ـ ابتعدي.

ثم اتجهتُ نحوها برأس منخفض وكأنني ثور، وبينما أدفعها بعنف بدا لي أنني لم أكن من يقرر تصرفاتي ولكن جزء من جسدي لا أعرفه. وأخذنا نتقاتل كعاهرتين. شدت أليكسندرا شعري ودفعتني على الأرض بركلة.

ـ إذا لم تنصرفي سأنادي أبي.

وفي لحظة أدركتُ ما فعلتُ وأردت أن أموت من الخجل. أخذت دموعي تنهمر على وجنتَي المخدوشتين بأظافرها.

بقيتْ تحرس الباب حتى ابتعدتُ. وبينما أسير أردت أن ألتفت للمرة الأخيرة، أن أتوسل إليها أن تعطي لباربارا قطعة الحلوى التي أحضرتها لها وسقطت على الأرض بجوار حقائبها، ولكن صوتي لم يعد يخرج.

أخذت أمشي بمفردي من دون وجهة محددة. كان الوقت مساءً بالفعل عندما عدت إلى المنزل، بمجرد أن وضعت قدمي في المنزل تقدم أبي نحوي.

ـ هل يمكن أن أعرف أين كنتِ؟ حل الظلام منذ مدة أيتها البائسة!

كنتُ مكتسية بالحمرة من البكاء، ولكنه انهمك في وعظه لي ولم يلحظ أي شيء، ولا حتى الخدوش.

ـ من حظك أن أمك أصيبت بالحمى وذهبت لتنام باكرًا كالدجاج.

سألته الصفح، وأقسمت أن هذا لن يحدث مرة أخرى، وعندما أوشكت أن أذهب بالفعل إلى الفراش قال لي إنه لا بد أن يخبرني بشيء مهم.

ـ غدًا يا بابا، كان يومي سيئًا.

وضع يديه فوق ذراعي وأجبرني على أن أجلس على المقعد.

قال:

ـ لقد تحدثت معه.

ـ مع من؟

ـ كيف «مع من»؟

ـ لقد قلت لك يا بابا، كان يومي سيئًا، دعني أنام.

ـ يقول إنه لم يفكر في الأمر ولكنه يناسبه، بل يسعده!

فقط في تلك اللحظة أدركت أنه يتحدث عن إيريش، وعندئذٍ مسحت وجهي بيدي وجففت عينَي بمنديله.

ـ ولكن لماذا لم تطلب إذني أولًا؟

ـ آه يا بنيتي، أحاول أن أساعدك وأنت تعاملينني بهذه الطريقة؟ ألا تريدين أن تتزوجي؟ هل تفضلين أن تطوي المفارش طوال حياتك؟

لم أشعر من قبل بصدمة مماثلة، كان صدغاي ينبضان ولم أستطع إيقاف النحيب.

ـ ولكن هل أعجبه أم لا؟

لم أستطع سوى أن أسأله هذا السؤال بين نحيب وآخر.

ـ بالتأكيد، فأنت رائعة الجمال!

ـ أنا جميلة بالنسبة إليك، ولكن هل أعجبه هو؟

ـ ولكن كيف يمكن ألَّا تعجبيه، هل يمكنك أن تخبريني؟

صرختُ غاضبة، يسحقني كل هذا الاضطراب:

ـ وماذا عن ماما؟ من الذي سيخبرها؟

قال وهو يمد ذراعيه وينظر إليَّ وعيناه تكادان تخرجان من حدقتيهما بسبب سلوكي: ـ سنتعامل مع كل مشكلة على حدة.

ـ هل يمكنني أن أذهب لأنام الآن؟

ـ على الأقل قولي لي إنك تريدين الزواج منه.

أجبته بينما أنهض عن المقعد: ـ أجل، يناسبني الزواج من إيريش.

صرخ بينما يفرغ تجويف الغليون:

ـ ولكن إذا كنت تريدين الزواج منه لماذا تستمرين في النحيب؟

لم أكن أستطيع أن ألفظ كلمة، عندئذٍ اقترب مني واحتضنني بقوة أكبر من المرة التي عدت فيها من امتحان الثانوية.

ـ أنا سعيد يا ترينا. إنه يتيم، مسكين ولديه أصغر قطعة أرض في البلدة. أي لديه كل المؤهلات اللازمة ليتسبب في جوعك!

ثم ضحك على أمل أن أضحك أنا أيضًا.

ربما استغرقني الأمر أسبوعًا لأستعيد نفسي بعد ذلك اليوم. عندما هدأت في النهاية وأدركت أنني في حال أفضل ذهبت إلى أمي، وسألتها: ـ إذن، هل يمكنني أن أتزوجه؟

استمرت أمي في تنظيف التراب ومن دون أن تلتفت إليَّ أجابتني: ـ افعلي ما يحلو لكِ يا ترينا. لسانك أطول مما يجب، ولن أتعب نفسي في النقاش معك. إذا كان يهمك رأيي لكنت سألتِني في الوقت المناسب.

لم يكن في إمكاني توقع أكثر من هذا منها.

الفصل السابع

عندما قادني أبي إلى المذبح، في تلك الكنيسة المزينة كلها بزهور الجيرانيوم التي علقتها مايا في كل مكان، كنت أمسك دموعي بصعوبة. ليس تأثرًا ولكن لأنهم في هذا اليوم نفسه، حملوا باربارا في سيارة وأرسلوها إلى المنفى. عاملوها معاملة أسوأ من العاهرة، وأجبروها على أن تسير في الطرقات والقيود في معصميها. كنت أرتدي ثوبًا أبيض مُنشى كله، ممتلئ بالكشكشات، شعري مصفف في ضفيرة وحذائي لامع، بينما هي تسير شعثاء، تلبس خفَّين في قدميها. كان الجميع في الكنيسة ينتظرونني ويعتقدون، بمن فيهم القس، أنني تأخرت لأنني أتزين. ولكنني كنت في فناء الكنيسة أبكي وأتوسل إلى أبي أن يأخذني كما أنا إلى باربارا، وأن يتركني أتحدث مع العساكر وأعترف بأنني المذنبة ويجب أن أذهب، أيضًا، إلى المنفى.

ردد بصبر وهو يعطيني منديله:

ـ كفى يا طفلتي.

وإذا لم يكن بابي قد خرج في لحظة ما ليساعده على جرِّي بالإكراه إلى المذبح، ربما كنت سأترك الحفل كله.

ذهبت لأعيش في منزل إيريش الذي ورثه عن أبويه. اتضح على الفور أنه منزل أموات. كانت الصالة مظلمة وعلى الأثاث توجد صور الأم التي تقع دائمًا أمام عيني. الأم وهي شابة، ثم مع الأطفال، الأم مع أمها. عملت لأغير مظهر الحجرات، دهنت الجدران بمفردي وغيرت مكان الأثاث. من حين إلى آخر بينما أجر الأثاث يسقط برواز ويتكسر الزجاج. عندئذٍ أجمع الشظايا بالمقشة، وأقبِّل صورة المرحومة لأطلب منها الصفح وأضعها في الدرج الأخير وأنا ألتقط أنفاس الحرية، وخلال شهر تخلصت منها كلها.

في تلك المزرعة لم تنقصنا المساحة، وبجوارنا يوجد مرعى جميل يتسلى جراو بالجري فيه، ولكن بالقرب من الحظائر تتصاعد روائح التبن والعلف وتتسلل إلى جلدك، في بعض الأمسيات أشعر بالغثيان منها. ودعيني لا أتحدث عن البرد الذي يدفعنا في الشتاء لأن نلف الأغطية على أكتافنا كالأشباح. في حين أن الرياح تندفع من تحت الباب بضوضاء مرعبة. نلتصق دائمًا بالمدفأة الخزفية ونستحم عندما نستطيع. بعد العشاء نذهب على الفور لننام، وتقريبًا كل مساء يقترب إيريش مني لفعل الحب كأنه حيوان أليف. أضحى الأمر

بالنسبة إليَّ بمنزلة طقس ولا أستطيع أن أقول إن كان يعجبني أو يضايقني. ما دام أسعده كان هذا يكفيني. بينما يضاجعني أفكر أحيانًا في باربارا، من يدري أين هي الآن وكم تكرهني.

أستيقظ معه في الليل، أعد له حساء الحليب، وإذا احتاج كنت أساعده في حلب الماشية وتوزيع التبن. لم يكن الاستيقاظ المبكر يجهدني، عندما أبقى بمفردي، أعد لنفسي فنجانًا من قهوة الشعير، ثم أذهب إلى الأطفال. أرسلني الكاهن إلى كوخ للمعدات خلف الجزار. الآن ظل معي ثلاثة تلاميذ. أجرى الفاشيون عمليات تفتيش أخرى عبر الوادي، وغرَّموا وقبضوا على مدرسين آخرين. فقط الكهنة، بحجة تدريس التربية الدينية، استطاعوا أن يدرِّسوا الألمانية.

بعد المدرسة أمرُّ على أبوَي لتناول الطعام. كثيرًا ما أبقى معهما، إذا لم أفعل ذلك أعود إلى المنزل وأقرأ. لم تكن أمي تتحمل أن أبدد وقتي بهذه الطريقة. إذا رأتني بكتاب في يدي تبرطم بأني سآخذ الكتب معي أيضًا إلى الجحيم، وتبدأ في سرد قائمة من المهن وتبدأ في مضايقتي بأسطوانة أنني لا بد أن أتعلم الحياكة استعدادًا لوصول الأبناء.

أيام الآحاد كنت أتجول أنا وإيريش بالدراجة. نذهب إلى ضفة النهر، نملأ سلالنا بفطر عيش الغراب، ونتخذ طرقًا صعبة التسلق نحو القمم. عرفت الوادي لأنه هو من قادني إليه، وليس لأنني وُلدت فيه. عندما أشعر بالبرد، هناك في الأعلى، يدلك لي ظهري. كانت يداه طويلتين وقويتين، وكنت أحب أن أشعر بهما فوق ظهري. يستيقظ أيضًا في أيام العطلات فجرًا، ويقول:

ـ هيا! لنذهب كي نتمشى فالسماء صافية!

كنت أحب البقاء في الفراش، ولكن إيريش يعد قهوة الشعير ويحضرها لي في الفراش ثم يلقي بالملاءة أرضًا.

كان يقول إنه لا يفكر في الأطفال، وعندما أقول إنني أريد أطفالًا يهز كتفيه.

يقول بإيجاز:

ـ سيأتون عندما يريدون.

أصبحت حاملًا على الفور بعد تبادلنا لهذا الحوار. كنت قد خرجت لتوِّي من كوخ المعدات، وأصابني فجأة شعور شديد بالغثيان، وكأنه تشنج. أخذت أبدل

الدراجة بسرعة نحو المنزل، جريت نحو الحوض، ثم ترددت كالعادة وقلت لنفسي إنه من الأفضل أن أبقى في الخارج. وكانت النتيجة أنني تقيأت على الباب.

ضحك إيريش وهو يضع رأسه على صدري:

ـ قلت لك إنهم سيأتون عندما يريدون!

أثناء الحمل كنت أشعر بالنعاس دائمًا، بمجرد أن أعود من الكوخ آكل شيئًا ما وأستلقي على الفراش. لم أعد أشعر بالخوف من الفاشيين، وعلى الرغم من حملي لم أكن أرغب بالتأكيد في أن أتوقف عن عملي السري كمدرسة. يشعرني بطني بالحماية وليس بالخوف.

عندما يعود إيريش من الحقول يضع يده على بطني، ويقول إنه يرى أنها ستكون فتاة وإنه يرغب في أن يسميها «آنّا» على اسم أمه.

وكنت أجيبه وأختم الحوار: «إذا كانت بنتًا سنسميها ماريكا».

الفصل الثامن

كان مايكل في البداية يأكل وينام بهدوء في المهد الذي صنعه له أبي، وملأته أمي بوسادات من القطن. لم يبكِ قَطُّ، بل لم يفتح حتى فمه. نطق كلماته الأولى في سن الثالثة. عكسك تمامًا. كان إيريش يستطيع فقط أن يقول له كلمتَي إطراء وأن يضعه لينام على كتفه، فيما عدا ذلك كان لا يهتم. عندما أسأله لماذا لا يجتهد بأن يمكث معه بعض الوقت، يقول ما دام لا يتحدث لا أعرف ماذا أقول له.

لم أتعب في ذلك كثيرًا، كنت أستطيع أن أستمر في التدريس وأن أتجول مع مايا، أيضًا لأنني كان يمكنني الاعتماد على أمي التي تأتي كل صباح لتساعدني. ولكن لم يكن يعجبني ذلك، بمجرد أن تدخل إلى المنزل كانت تعصر ثديَي وتلومني على نحافتي، وتقول: «إن هذا يمنعك من أن يكون لديك حليب كافٍ». ثم إنها تريد أن تحمل الطفل دائمًا، وكانت أي ساعة، بالنسبة إليها، مناسبة لإرضاعه.

كانت لا بد أن تمر أربعة أعوام قبل أن تولدي. في كل ذلك الوقت كنتِ سبب قلقي، وحتى لو أشعرتني أمي بأنني لست أمًّا صالحة كنت أريدكِ. في اليوم الذي اكتشفت فيه أنني أنتظرك كان أسعد يوم في حياتي. راودني الشعور بأنك فتاة، وكنت واثقة أنني سأسميك بذلك الاسم الذي قرأته في رواية، الذي في رأي أمي إحدى لمسات الجنون التي أصابتني بينما أدرس لأصبح معلمة.

وُلدتِ في ليلة شتوية. كان الثلج مرتفعًا ووصلت القابلة متأخرًا، عندما كان رأسك في الخارج بالفعل. فعلت أمي كل شيء، تغيير الدلاء، إشعال الفرن لتوفير المياه ساخنة، تغيير الضمادات، منحتني الوقت لأدفع وأبطئ حتى لا أمزق نفسي. حتى في تلك اللحظة تعطي الأوامر وكأنها الجنرال. ولكنها كانت دقيقة ومعتنية بكل شيء. ولم تترك يدي قَطُّ.

عندما وُلدتِ امتلأت الغرفة بروائح الولادة، ولا أعرف بماذا أيضًا، لكنني شعرت بالخجل. حمَّمتكِ أمي، ووضعتكِ على صدري وأنت نظيفة وعلى رأسك غطاء الرأس الصغير. وقالت والعرق على جبهتها ويداها في وسطها:

ـ تشبهك تمامًا، لا بد أن ننتبه ونبعدها عن الكتب!

ثم ضحكت مسرورة لأنكِ لم تكوني حمراء اللون ومكرمشة الجلد، بل كان جلدك أبيض اللون متماسكًا.

كان إيريش قد خرج منذ أيام يجمع الحطب. رحل ومعه المزلجة مع مجموعة من الفلاحين. أشعر دائمًا بالتوتر عندما يخرج لجمع الحطب لأنه عمل خطير، وحدث في أكثر من مرة أن انزلقت المزلجة بسرعة فاصطدمت بشجرة أو انتهت في حفرة. عندما عاد قلت له إن أبي قد سجلكِ في البلدية وإنه لم تعد هناك طريقة لتغيير اسمك.

قال وهو يحملك على ذراعه ويفحص وجهك:

ـ لم يكن في الإمكان أن تكون لديك أمٌّ أكثر عنادًا من أمك.

لم تكوني مثل مايكل، كنت تبصقين الحليب، وإرضاعك كل يوم من صدري كان عملية مجهدة. كان لا بد أن أعصره في فمك لأنك تتعبين من المص. لكي تنامي لا بد أن نهدهدك باستمرار وأن نجعلك تمسكين بكرة من الخيوط ربطتها أمي في معصمك. في رأيها كنتِ تخافين من السقوط ولا بد أن نراقبكِ حتى لا نتركك وحيدة مع مخاوفك. يمكث مايكل لينظر إليكِ في المساء حتى تنامي. تركزين على مصباح الجاز محدقة بعينيك البندقيتين اللتين تُغلقان فجأة. إذا حركت يديك في الهواء يربت هو على بطنك حتى لا تستيقظي. بدأت تتحدثين بسرعة. ربما لهذا تخيلتك دائمًا فصيحة اللسان وقادرة على التحاور مع الجميع.

في عمر ثلاث سنوات كنت تجرين، قبل الأوان، كالأرنب البري. كانت لديك قوة لا تتعب في قدميك، إلى حد أن أبي لم يعد يستطيع اللحاق بك. بدأ يخرج في جولات مع إيريش، الذي يمسككِ من ياقتكِ إذا حاولتِ الهروب. أحد أكثر ذكرياتي وضوحًا هو رؤيتك وأنت تسيرين نحو الكنيسة بين الاثنين.

يرهقني الاهتمام بكِ وبأخيكِ بسرعة. وكنت أعاني من ضيق الوقت. أفكر بأنني عند وجودي معكما في المنزل، تتقدم الأشياء الجميلة في العالم إلى الأمام، وعندما تكبران لن أعثر عليها أبدًا. إذا أسررت لإيريش بأفكاري تلك لم يكن يفهمني ويقول إنني أجعل عيشتي مُرة.

لم يكن يتضايق إذا عاد من الحقل ولم يكن العشاء مُعدًّا أو كان المنزل في فوضى. بعد أن يرتدي بنطال البيجاما يأخذك بين ذراعيه، وبيَدٍ يقطع رغيف «البولينتا» أو يقلي بيضتين في الزبدة. يأكل واقفًا، لم يكن يهمه أن يجلس إلى المائدة.

وكلما كبرتِ تعلق بك أكثر. فأنت جائزته. يضعك على كتفيه وإذا لم تكوني تصرخين في أذنه، يشعل سيجارة ويذهب إلى الميدان كجنرال منتصر. يأخذ

مايكل معه ليصطاد أو إلى حانة كارل. ويتركه يشرب الحليب من كوب الجعة حتى يشعر بأنه كبير.

في المساء تقفين أنتِ وأخوك أمام الباب في انتظاره وعندما تريانه قادمًا، تجريان نحوه ولا تريدان حتى إدخاله. ويبتعد هو لأنه ما زال يحمل رائحة الحيوانات العفنة ولكنكما تدسان رأسيكما تحت قدمه ليفهم أن هذا لا يهمكما. تجريان في الخارج معه، لا بد أنني كنت مملة بالنسبة إليكما. كنت أحب أن أضعكما على البساط وأظل أنظر إليكما.

عندما تشعران بالنعاس تريدانني أنا، وفي لحظة تنامان، أنت على تلك الكتف ومايكل في مهده. عندئذٍ يبدأ إيريش في التدخين ويتحدث معي بصوت كئيب. يستحوذ الفاشيون على تفكيره.

كان يعترض والدخان في حلقه: «فليذهبوا للعمل في أفريقيا أو للقتال في أي مكان ناءٍ من أماكن إمبراطوريتهم. الآن يقطعون أشغالنا وألسنتنا، ثم، بمجرد أن يستهلكونا ويتسببوا في بؤسنا، سيطردوننا بعيدًا ليبنوا سدهم اللعين».

كنت أمكث وأستمع إليه من دون أن أعرف ما أقوله. لم أنجح قَطُّ في مواساته.

«عندئذٍ سنأخذ الأولاد ونرحل بعيدًا».

كان يصرخ: «لا».

«لماذا تريد البقاء هنا إذا أصبحنا بلا عمل، وإذا لم نكن سنتمكن من التكلم بالألمانية، وإذا كانوا سيدمرون البلدة؟».

«لأنني وُلدت هنا يا ترينا. وهنا وُلد أبي وولدت أمي، وولدت أنتِ وولد ابناي. إذا رحلنا فقد انتصروا».

الفصل التاسع

عام ١٩٣٦ وصلتْ إلى كورون أخت إيريش. كانت تعيش في إنسبروك مع زوجها، رجل طويل القامة وضخم، بشارب طويل. كانا من أناس المدينة الأغنياء، رأيتهما فقط يوم زواجي. أنيتا ولورينز أكبر منا بكثير. ابتاعا من المصرف إحدى المزارع الكثيرة الفارغة في البلدة. واقتربنا من بعضنا كثيرًا بسرعة. نأكل معًا أيام الآحاد، وأحيانًا أيضًا في المساء في أيام الأسبوع. تحب أنيتا الطهي، وكثيرًا ما تطرق الباب وتترك لي كعكة مستديرة، وتقول: «أعطيها للأولاد».

تشبه أنيتا إيريش، كانت لها ملامحه، الجبهة العريضة نفسها. امرأة قصيرة القامة وهادئة، مبتسمة دائمًا. عندما كان لورينز يعود من النمسا ـ فهو يعمل ممثلًا لشركة تأمين ـ يحضر لنا الهدايا. لم تكونا تصدقان عيونكما عندما تريان بعض الهدايا. تكرران مائة مرة: «شكرًا يا عمو لورينز»، ولكن لم ترغبا في احتضانه، ربما لأنه كان مهيبًا وله شارب. كان إيريش على سجيته معهما، وكثيرًا ما يسأل أخته مبتسمًا كأنه شخص لا يفهم: «ولكن لماذا أتيتما إلى كورون؟».

وكانت أنيتا تقول له وهي تنظر إلى يديها: «المدينة تتسبب لي في اضطراب أفكاري».

كان لورينز يثير ريبتي. يرتدي دائمًا سترة بلا أكمام بنية اللون، وحتى عندما نكون داخل المنزل يرتدي رباط العنق. في الأيام الجميلة يدعونا لنأكل في الخارج. أختلق أنا الأعذار وأقول إن لديَّ ما أفعله في المنزل، ولكنه يصر وفي النهاية أرتدي ملابسي وأخرج معهم. يتحدث مع إيريش في السياسة وكانت متابعة مناقشتهما ترهقني. كنت أفهم فقط أن ألمانيا بالنسبة إلى لورينز ستنقذ العالم. أسير أنا وأنيتا خلفهما ببضع خطوات، تتحدث معي دائمًا عنكما، تدرس طباعكما وتسألني عما يدور في ذهني عن مستقبلكما، ولا أعرف أبدًا كيف أجيبها. تقول إن جلدكِ ناعم كالخزف. أسألها أنا أيضًا: «لماذا أتيتما إلى كورون؟». عندئذٍ تحكي لي كيف أنها لسنوات عدة تبعت زوجها في أنحاء أوروبا، ولكنها الآن لم تعد لديها الرغبة في ذلك. عندما تُسر إليَّ بهذه الأشياء يهبط عليها وشاح من الحزن وتبقى صامتة دقائق كاملة. أو تقول: «بسبب أن حياتي دائمًا في تجوالٍ لم أعقد أي صداقة مع أحد». ثم تعبِّر بوجهها عن الضيق. لم تكن لديَّ قَطٌّ الجرأة لكي أسألها عن سبب عدم إنجابهما للأطفال.

كان مايكل ثورًا صغيرًا، يكبر في غمضة عين. في عمر الحادية عشرة كان ظلّا لإيريش. لم يعد يرغب في الذهاب إلى المدرسة وكثيرًا ما يهرب إلى الحقول بدلًا من دخول الفصل. إذا عنفته يقف لورينز في الوسط ويقول إن مايكل يفعل خيرًا. ويبرطم بصوت عميق:

ـ المدرسة الإيطالية ليست سوى حثالة حيث يتعلمون فقط التهليل للدوتشي، والعمل في زراعة الأرض أفضل بكثير.

كان لا بد أن أبلع لساني حتى لا أجيبه بطريقة سيئة. ولكنني لم أكن أنام الليل من فكرة أن مايكل لا يذهب إلى المدرسة، وكان يبدو لي أنه يعيش كحيوان. ولكن إيريش لم يهتم، كان يأخذه معه، ويشرح له كيف يزرع البطاطس، وكيف توضع بذور الشعير والجويدار، وكيف يجز الغنم ويحلب الأبقار. أو كان يأخذه أبي الذي يتمنى أن يعلم أحدهم مهنته.

أما أنتِ فكنت تذهبين بكل سرور إلى المدرسة، وتتكلمين الإيطالية جيدًا. في المساء تمتطين ظهر إيريش وتلعبين معه بأن تخبئي عينيه بيديك ثم تقرئي له بعض الأفكار التي يطلب منك ترجمتها. يصفق إيريش بيديه المليئتين بالعُقد، ويلقي بك في الهواء وتمتلئ الحجرة بصرخات فرحة. في إحدى المرات عدتِ إلى المنزل بدرجات جيدة، وبينما تطوحين بالدفتر تحت أنفي، قلت لي: «ماما، عندما أكبر سأصبح أنا أيضًا مدرسة، هل أنت مسرورة؟».

منذ أيام عثرت على صورة قديمة لونها بني، ملتصقة بإهمال بورقة لا بد أنها جزء من مذكرات. صورة مهزوزة، ربما التقطها لورينز. في الصورة يحضنني مايكل بقوة، ولكن أنت تحضنين إيريش.

قال لي أبي إنه لم يعد يستطيع الذهاب إلى الورشة، لم يعد قلبه يتحمل الذهاب كل صباح بالدراجة حتى ريزيا. وهكذا بدأت أنا في الذهاب إلى هناك، حيث إنني كنت بلا عمل ولم أعد أذهب إلى الكوخ لأعمل مدرِّسة سرية.

أبدل دراجتي حتى ورشة النجارة وأتابع أعمال الإدارة. تعلمت أن أراسل الموردين وأن أدفع أجر العمال وأن أنظم السجلات. أما أنتِ فعندما لا تجدين أحدًا في المنزل تذهبين إلى العمة أنيتا. معك أنت أيضًا كانت هادئة ومبتسمة. عندما أذهب لآخذك، تقصين عليَّ أنك أكلت أشياء لم يكن في الإمكان أن نسمح بها لأنفسنا، مثل الشوكولاتة واللحم المقدد. كانت النقود تتضاءل أكثر في المنزل، وفي بعض الأمسيات كان ما يمكن وضعه على مائدة الطعام قليلًا جدًّا. عندما تزوجنا، اعتمدنا أيضًا على راتبي من التدريس، واعتقدنا أنه على الرغم من الفاشية، سأستطيع التدريس، بطريقة أو بأخرى. ثم في عام ١٩٣٨

مرضت الماشية واضطررنا لقتل نصفها لتجنب انتشار العدوى. لم يعد لدينا تقريبًا أي من الأغنام.

أراد لورينز أن يقرضنا بعض النقود ولكننا كنا معتزين بكرامتنا فلم نقبلها. وقرر إيريش أن يذهب للبحث عن عمل في ميرانو. كانت بولزانو وميرانو قد أصبحتا بالفعل كما يريد «الدوتشي». مناطق صناعية والضواحي فيها تتوسع باستمرار. وإلى هناك انتقلت مصانع «لانشا» للسيارات، وصناعات الصلب والماغنسيوم، وكان الإيطاليون يحضرون بالآلاف.

أخذ لورينز يردد:

ـ إذن إلى أين تريد الذهاب؟ موسوليني لن يسمح لأي شخص أن يعين أهل تيرولو. لا فائدة من قطع كل هذه المسافة.

ـ يوجد عمل، لا يمكن ألَّا يعطونا إياه.

وتنهد وهو يحك في شاربه:

ـ بالعكس يمكنهم.

عندئذٍ يضرب إيريش الجدار بقبضتيه وهو يصرخ بأن الفاشيين يسلخون جلده عن جسده.

يقول له لورينز ليطمئنه:

ـ لقد ضم هتلر النمسا بالفعل. لنمنحه بعض الوقت وسيأتي ليحررنا نحن أيضًا.

الفصل العاشر

كانت الفاشية تبدو وكأنها موجودة منذ الأزل. منذ الأزل يوجد «البوديستا» وتوابعه في مبنى البلدية، ومنذ الأزل يوجد وجه «الدوتشي» معلقًا على الجدران، ومنذ الأزل يوجد العساكر الذين يدسون أنوفهم في أمورنا الخاصة ويجبروننا على أن نذهب إلى الميدان لنسمع الإعلانات. كنا قد اعتدنا على ألا نصبح أنفسنا. تصاعد غضبنا، ولكن جرت الأيام بسرعة والحاجة إلى البقاء على قيد الحياة حولت ذلك الغضب إلى شيء ضعيف يتلاشى. أصبح غضبنا شبيهًا بالحزن، لم ينفجر قَطُّ. أصبح الأمل في أدولف هتلر هو التمرد الحقيقي. ذلك التمرد أخذ يعلن عن نفسه على طاولات الحانة، وفي التجمعات السرية حيث يتقابل الرجال ليقرأوا الصحف الألمانية، ولكن يتبخر بمجرد أن يصبحوا بمفردهم في حظائرهم يحلبون الأبقار ويسيرون نحو النافورة ليرووا عطشها.

وهكذا غفونا، متراخين ومقموعين، حتى صيف عام ١٩٣٩ عندما أتى ألمان هتلر ليعلنوا أننا إذا أردنا يمكننا الدخول في «الرايخ» وترك إيطاليا. وسموا هذا «الاختيار العظيم».

احتفلت البلدة على الفور. فرح الناس في الشارع، وأخذ الأطفال، من دون أن يفهموا، يقفزون في دوائر، والصبية يتبادلون الأحضان، مستعدين للرحيل، الرجال يمرون بجوار العساكر ويسبونهم بالألمانية. يلتزم العساكر الآن الصمت وأياديهم فوق الهراوات ورؤوسهم منحنية. هكذا أراد موسوليني.

في ذلك اليوم جلس إيريش في المنزل يُدخن، ولم يوجه لي كلمة واحدة. عندما طرق لورينز الباب ليقول إنه ذاهب إلى الحانة ليحتفل لم يصحبه. عاد لورينز مخمورًا في وقت متأخر من الليل، وقبل أن يعود إلى منزله أراد التحدث مع إيريش، الذي نام بالفعل منذ بعض الوقت. كنت أنا بملابس النوم، وعندما سمعته يطرق الباب وضعت على كتفَي غطاء قبل أن أفتح الباب. اندفع إلى الداخل من دون أن يحييني، دخل إلى الحجرة وهو يستند إلى الجدران، وجلس بجواره، وقال: ـ أنا سرعان ما سأذهب لأنني ليست لديَّ جذور في أي مكان. ولكن إذا كان هذا المكان يعني لك أي شيء، إذا كانت الشوارع والجبال ملكك، لا يجب أن تشعر بالخوف من أن تبقى.

ثم حضن رأسه.

حتى نهاية العام سادت حالة من الصخب في البلدة. يتحدث الجميع عن الرحيل، يتخيلون الأماكن التي سيرسلهم «الفهرر» إليها، وماذا سيعطيهم مقابل ما سيتركونه هنا. أي مزارع وفي أي مناطق من «الرايخ»، أعداد الماشية ومساحة الأرض. كانوا بالفعل يائسين تمامًا من الفاشيين ليصدقوا تلك الكذبات. القلائل، مثلنا، الذين قرروا البقاء كانوا يُشتَمون. ينعتوننا بالجواسيس والخونة. فجأة أناس عرفتهم منذ طفولتي لم يعودوا يحيونني، ويبصقون على الأرض عندما يمرون بجواري. مجموعة السيدات اللاتي يذهبن كل يوم إلى النهر أصبحت الآن مقسمة إلى مجموعتين، تلك الخاصة بـ«من اختاروا الرحيل» وبـ«الباقين»، وكانوا يتخذون أماكن مختلفة ليغسلوا الملابس. الحديث عن الحرب يدفئ النفوس. من مهاجرين وخاضعين، في الجوار منذ بضعة أعوام، يمكننا نحن أيضًا أن نصبح سادة العالم.

سألت مايا:

ـ هل سترحلين؟

ـ أريد أن أرحل من كورون، ولكن ليس بهذه الطريقة.

أسررت إليها:

ـ لم أعد أفهم ما هو الصواب.

قالت وهي تنظر إلى الجهة الأخرى: ـ عائلة باربارا سترحل. يريدون الذهاب إلى ألمانيا.

كم كان الوقع غريبًا أن أسمع اسم باربارا. بدا لي أنه مر قرن منذ أن كنا صديقتين، نذهب معًا إلى ضفة البحيرة، نضحك معًا على العشب. لم أعتَد سماع اسمها، كان ألمي السري، الذي لم أكن أتحدث عنه مع أحد، ولا حتى مع نفسي.

وضعوا الطاولات على جانبي الطريق المتقابلين. بجوار برج الجرس ومحل الحداد جلس النازيون. كل مجموعة توزع أوراقًا. النازيون يقولون علينا أن نحذر، فالإيطاليون سيُرحلوننا إلى صقلية أو إلى أفريقيا لنموت كالذباب. والإيطاليون كانوا يقولون الشيء نفسه: «الألمان سيرسلونكم إلى منطقة غاليسيا، أو منطقة سوديت أو أبعد نحو الشرق. ستحاربون في الثلج».

بعضهم يلقي الحجارة على نوافذنا التي أصبحنا نغلقها أيضًا أثناء النهار. عن تلك الأعوام أتذكر الظلام في المنزل وأنفي المندس بين المصاريع.

في صباح أحد الأيام أخذ بعض الصبية مايكل وأوسعوه ضربًا لأنه ابن أحد «الباقين». عثرت عليه على الأرض في الردهة، ودمه متخثر في فمه، وملابسه وشعره مغطيان بالروث. في اليوم التالي لم أرسلك إلى المدرسة، أخذتكِ معي إلى الورشة على الدراجة ولم أبعدك عن نظري لدقيقة واحدة.

كنت أقول لك لأطمئنك: «سأدرِّسك أنا».

كنتِ مستاءة، وأجبتِ بأنني استحواذية وبأنه لا أحد سيضربك في المدرسة لأنك تعرفين كيف تفرضين احترامك. في الورشة كنت تسألينني باستمرار: «لماذا لا نرحل نحن أيضًا؟».

«لأن أباك قرر هذا».

«ماما، أريد أن أرحل من هذا المكان. هنا لم يعد في إمكاني حتى الذهاب إلى المدرسة».

الفصل الحادي عشر

وعلى مشارف نهاية العام كان هناك من أعد حقائبه للرحيل إلى ألمانيا، كانت المراتب الضخمة ملفوفة ومُحملة بالفعل في العربات ومعها الأثاث المفكوك، وأجولة الخيش معبأة بأدوات المطبخ والمفروشات. في المساء يخرج الذكور من المنازل بحقائبهم الممتلئة بالملابس التي طوتها النساء بعناية، واللاتي قبل أن يغلقنها طهون كل ما لديهن لإعداد وجبة أخيرة مغذية. نشتم روائح اللحم والبطاطس، رائحة عصيدة «البولينتا» التي تُقلى في الدهن. تظهر العائلات خلف زجاج النوافذ وهم يتناولون العشاء على ضوء مصابيح الزيت على المائدة ويمضغون من دون أن يتحدثوا. أما نحن الباقون هناك، فننظر إليهم من أمام العتبات أو أثناء مرورنا أمام حقولهم وكان واضحًا أن حتى اللحم الذي يأكلونه كان يسممهم. يدعون أنهم مسرورون، وأن هتلر سيجعلهم أغنياء، سيمنحهم المزارع والأراضي والماشية، ويواسون أنفسهم بأنه هنا في كورون سرعان ما سيبني «الدوتشي» السد وسيصبح الرحيل حتميًّا في كل الأحوال. ولكن مكتوب على شفاههم المطبقة، وقبضاتهم المغلقة أن الذهاب بهذه الطريقة كان قاسيًا، قاسيًا للفتيات وللأطفال، ولكنه أكثر قسوة للمسنين الذين كانوا يتركون لهم أفضل الأماكن في العربات ويطلبون منهم محاولة النوم. عندما ترحل العربة نحو محطة بولزانو أو في اتجاه إينسبروك، حيث تنتظرهم قطارات «الفهرر»، وعلى طرقات كورون، يسود صمت الأجراس وكأنه مرور نعش ميت.

كل مساء يجول جيرارد، سكير البلدة، في المزارع ـ عددها قرابة المائة هنا في كورون ـ ليتأكد إذا كان هناك شخص آخر قد رحل. وعندما يجد إحداها فارغة يطرق الباب حتى يجرح عقد أصابعه أو يسقط نائمًا. يأتي كارل في صباح اليوم التالي لإيقاظه ويجره، وهو ثمل تمامًا، إلى الحانة حيث يعطيه فنجانًا من القهوة ليوقظه.

قالت لي مايا في ظهيرة أحد الأيام: ـ اركبي الدراجة، أريد أن أذهب لأودع أخت باربارا.

عندما رأتني أليكسندرا على الباب مع مايا جحظت عيناها. طلبت منا أن ندخل وقطعت لكل منا قطعة من الخبز، قدمته لنا من دون أن تضع لنا صحنًا ولا فوطة، كما يفعل المرء مع عائلته. أكلنا الخبز وشعرنا بطعم حبوب الكمون تُطحن تحت أسناننا، حيث ساد الصمت. سلمنا على أمها، التي لم تحِبنا. ربتَّ على الكلب الذي أخذ يهز ذيله بالقرب من المائدة.

سألتها مايا:

ـ هل سترحلين؟

ـ أجل، ولكن لا أعرف بعد إلى أين.

سألتُها وقد خفضتُ عينَي:

ـ هل سمعت أخبارًا عن باربارا؟

ـ طلبت العفو من «الدوتشي» وسيطلقون سراحها قريبًا. ستذهب مباشرة إلى ألمانيا، من دون أن تمر من هنا.

سألتُها فجأة:

ـ هل لديك ورقة وقلم؟

قالت بعنف:

ـ ماذا تريدين أن تفعلي بهما؟

ـ أريد أن أكتب لها رسالة.

نظرت لي أليكسندرا بارتياب، ثم أخذت تفتش في درج وأخرجت دفترًا صغيرًا قطعت منه ورقة بعناية. ظللت واقفة وكوعاي مستندان فوق الطاولة. كنت أشعر بعيونهم على ظهري بينما أكتب ولكنني لم أكترث.

قلت لها وأنا أطوي الورقة أربع مرات: ـ أعطيها لها عندما ترينها.

أمرتني أن أتركها على الطاولة.

كررت وأنا أضعها في يدها:

ـ أعطيها لها فهو أمر مهم للغاية.

مكثنا بعض الوقت ننظر إلى بعضنا. لم تتحدث أي منا، وسرعان ما أصبح الصمت لا يحتمل، عندئذٍ ابتلعنا القطعة الأخيرة من الخبز ورحلنا.

عندما حكيت لأبي ما حدث قال لي: ـ يا صغيرتي، إننا نصنع خيرًا بأن نبقى هنا. لا يهم إذا كان لدينا القليل لنضعه على مائدة الطعام، ستتحسن الأمور. المنازل التي نسكنها هي منازلنا، ولا يجب أن نتركها لأي سبب.

ـ هل أنت متأكد يا بابا؟ لقد حرقوا حظيرة شخص آخر لا يرغب في الرحيل، وضربوا مايكل، وينتظرون أن أرسل ماريكا إلى المدرسة ليفعلوا الشيء نفسه. وهناك الكثيرون الذين لا يوجهون كلمة واحدة لإيريش.

ـ أعلم هذا يا ترينا، ولكنها مجرد لحظة. ستمر الفاشية، وسيرحل أولئك الناس وسنعود نحن لنعيش حياتنا.

كان التحدث مع أبي يطمئنني. كنت أريد أن يتحدث معه إيريش أيضًا بدلًا من أن يظل محبوسًا في المنزل وكأنه منفي. ذلك اليوم، عندما عدت إلى المزرعة، وجدته، كالعادة، يسير ذهابًا وإيابًا، وهو يحك بعصبية قدميه في الأرض.

قال من دون أن يحييني:

ـ خارج البلدة عاد المهندسون والعمال. طوال الليل أتى الرجال والناقلات. قاسوا كورون طولًا وعرضًا، وأخذوا عينات من الطمي، وخططوا لمحيط السد. سرعان ما سيبدأون في بنائه. لا أدري إذا أدرك أحد في البلدة ما يحدث، أم لا يهتم الجميع لأنهم قرروا حاليًّا أن يرحلوا.

الفصل الثاني عشر

ذلك المساء عدت متأخرة أكثر. في الخارج كان الوقت شديد الظلام وعلى جانبي الطريق يعكس الثلج نور القمر. في الورشة كان لدينا تسليم أثاث مطعم صغير. اشتغل العمال كثيرًا لشهور لإنهائه. ووصل صاحب المطعم مع أبنائه وعندما انتهوا من تحميله كان المساء قد حل. على الدراجة شعرت بالبرد فلم يكن لديَّ وشاح ولا شال، لأنني عندما خرجت في الصباح كانت الشمس قوية. مررت على أبي لأقول له إن كل شيء جرى على خير، وجدته ناعسًا يخرج صفيرًا مع أنفاسه. هززت كتفه، ابتسم لي بأسنانه العجوز وحكى لي أن مايكل أتى وأنهما لعبا معًا بالورق. كنت على عجلة لأعود، ولكن لم يتوقف أبي عن طرح الأسئلة فيما يختص بهذه الصفقة، وإذا كنت حصلت على النقود ومن أتى ليأخذ الأثاث، وكيف عمل ثيو وجوستاف. وضعت أمي بالقرب مني صحنًا من شعيرية «الشبتزلي» ونظرًا إلى أنني كنت أشعر بالبرد جلست لآكله. ففي كل الأحوال بمجرد أن يدخل إيريش إلى المنزل يأكل أي شيء يجده أمامه ولا نتناول العشاء معًا إلا نادرًا.

سألتني أمي:

ـ أليست الطفلة لدى أخت زوجك؟

لم تتوقف عن الحياكة، حيث اقتربت أعياد الميلاد ومثل كل عام كانت تصنع لنا كنزات جديدة.

ـ اليوم، أجل.

ـ إذن، كِلِي على مهلك.

كان الوقت متأخرًا حقًّا، ولكن ليس كثيرًا. كانت الساعة تقريبًا الثامنة والنصف، وربما التاسعة. في الخارج تكسو النجوم السماء. الغد أيضًا سيكون يومًا مشمسًا، وأنا، شاردة كما هي عادتي، سأخرج مرة أخرى بلا وشاح وسأشعر بالبرد في طريق عودتي. أعارني أبي وشاحه، وضعه فوق كتفَي قبل أن يغلق الباب ويتمنى لي، بعجلة، ليلة سعيدة.

بدلت دراجتي حتى منزل أنيتا. كان النور مضاءً. قالت وهي تتثاءب: ـ مايكل مع إيريش، نامت ماريكا هنا. حاولنا إيقاظها ولكنها لا ترغب بذلك.

لم تدعني أدخل. حدث كل شيء على عتبة المنزل، تحت النجوم التي تتلألأ.

سألت:

ـ هل أكلَت؟

ـ أجل، «البولينتا» بالحليب، كانت لديها شهية كبيرة.

وابتسمت لي ابتسامتها المعتادة الممتلئة بالسلام الذي لا أجده. أكون مسرورة عندما تأكلين الحليب و«البولينتا» لأنه هكذا يبدو لي أنك لا تحتقرين ما لدينا نحن أيضًا.

من بعيد رأينا أحدهم يتحرك ويحمل أشياء على عربة. مزرعة جديدة سوف تصبح فارغة.

في المنزل كان إيريش ومايكل نائمين. دخلت الفراش، وأنا أفكر أنني ربما أخطأت، في الصباح كان يمكننا جميعًا أن نتناول الإفطار معًا، وأن نستيقظ بهدوء. يوم الأحد يُعِد إيريش الحليب الساخن للجميع وكانت إحدى أجمل اللحظات في الأسبوع. يضحكنا مايكل، وهو يتحدث بفم ملآن، وتتسلين أنت بغمس «البولينتا» في صحنه.

سألني إيريش:

ـ هل بقيت ماريكا هناك؟

ـ أجل، قالت أنيتا إنهما حاولا إيقاظها ولكنها كانت تشعر بالنعاس الشديد.

التفت إلى الجهة الأخرى، وبعد دقيقة واحدة عاد ليشخر من جديد. لا أعرف إذا كنت لم أغمض عينًا لأنكِ كنتِ هناك لديهم، أو لأنني أعيش الآن في خوف من أن «من اختاروا الرحيل» سيحرقون لنا الحظيرة أو سيقتلون الماشية. سمعت البلدة وهي تستيقظ ببطء، وصوت الجرس الأول. رأيت الشمس تشرق من الجبل. كنت أتململ في الفراش. فكرت، اليوم سأضع أنا الحليب على النار، وكنت أحاول أن أخترع سببًا لآتي وآخذك. إذا انتظرتُ حتى تعودي أنت، كنت ستبقين لوقت الغداء. كنت تحبين البقاء معهما، يدللانك، ويغمرانك بالهدايا. كل تلك الأشياء التي لم نستطع نحن منحها لك.

عندما دخل الضوء استيقظ إيريش، وأخذ يتحدث معي هامسًا. كان الثلج مرتفعًا في الخارج. عندما سألته: «هل تذهب أنت لتنادي ماريكا؟»، قال لي أن أدعكِ لتنامي المزيد من الوقت، ثم أعد الإفطار. فعلنا ذلك نحن الثلاثة. ربما انتظرنا لأنه كان من النادر أن نبقى بمفردنا مع مايكل، وكان على سجيته، ويطلب منا التركيز معه ويريد أن يستمتع بتلك اللحظة. في التاسعة ارتديت ملابسي، وارتديت التنورة البنية التي تعجبك، جمعت شعري بأفضل طريقة وخرجت. تركت الاثنين معًا إلى المائدة يأكلان صحنًا آخر من «البولينتا».

وهناك أمام المنزل، فهمت على الفور. لم تكن الأبواب موصدة تمامًا، وكانت النوافذ مغلقة بلا مزاليج. على الأرض كانت هناك قبعة ملقاة، وبداخلها رقاقات ثلج. رأيت أمامي كل الظلام والفراغ اللذين لا بد قد تجمعا ليقبعا في ذلك المنزل، الذي لم تكن لديَّ أدنى شجاعة لأدخله. جريت بسرعة لإيريش وجررته ليرى. أتى مايكل أيضًا وأخذ يصيح باسمك في الحجرات المهجورة. كنت أعقد قبضتي، كنت أحاول أن أدفع بالدموع إلى الخارج ولكنها لم تطفر. بدأت في ضرب الجدران بلكمات حتى شعرت بالألم، وأخذت أحك فيها حتى شققت أظافري، حتى أخذني إيريش بعيدًا.

أتى الناس من المزارع المجاورة. أخذت أنادي مايكل ورغبت في أن يكون قريبًا مني خوفًا من أن يأخذوه هو أيضًا. وضعوني على الفراش، ونزعوا حذائي المبلل بالطمي. جعلني الضوء الأبيض الداخل إلى الحجرة أغطي وجهي بيدي. وجدت أمي جالسة بجواري على الفراش وكأنني أحتضر. وأخذ إيريش يردد بأن عليَّ أن أهدأ.

حل المساء ثم الليل. من كان يقول إنكم ربما تتجولون في الجوار لم يعد يقول هذا. ومن قال إنكم ستعودون لم يعد يقول ذلك. رحل قرابة عشرة رجال بحثًا عنك. وصل إيريش بالدراجة حتى بلدة ماليس، وأبلغ عما حدث لدى المركز الرئيس للفاشيين. عندما عاد في اليوم التالي كان وجهه يشبه الأموات وكان يبدو وحيدًا بمواجهة العالم.

جلست لأحدق في الفراغ. كان حلقي جافًّا ولكني أمسكت عن السعال. ضغطت على عينَي حتى لا أسمع تلك الكلمات التي ظهرت أمامي مثل كلمات سبق وسمعتها: «من السجلات يتضح أنهما اختارا الذهاب إلى «الرايخ»». «رحل قطارهما بالفعل».

الجزء الثاني

الهروب

الفصل الأول

لن أحكي لكِ عن غيابك. لن أقول لك كلمة واحدة عن الأعوام التي قضيناها بحثًا عنك، وعن الأيام التي قضيتها واقفة أمام الباب أحدق في الطريق. لن أخبرك عن أبيك الذي خرج من المنزل من دون أن يُعلمني، وأوقفوه في محطة بولزانو وهو يحاول أن يركب قطار البضائع المباشر إلى برلين. ألقت به الشرطة الإيطالية في البداية في الزنزانة، ثم وعدوه بأنهم سيعيدون إليه بأنفسهم ماريكا ابنته. بعدها ببضعة أيام حاول أن يعبر الحدود على قدميه. حجب ضوء المصابيح عنه الرؤية ولكنه لم يتوقف عندما أمروه، بل أصابته رصاصة وخدشته. في الظهيرة طرق بعض الضباط الباب، ملتفين بمعاطف رمادية رتبهم محاكة على صدورها. قبل أن يدفعوا به إلى داخل المزرعة هددوه بأن يحبسوه في المصحة العقلية في بلدة بيرجنه، المصحة نفسها التي أفرغها هتلر ليُرحل كل مرضاها إلى المعسكرات ويبيدهم بالغاز. لن أخبركِ عن مايكل الذي كان يتجول ومعه صورتك ـ صورة بلا إطار من العام السابق، يبدو فيها شعرك مربوطًا بطريقة توقفت عن استخدامها ـ ومع مجموعة من الأصحاب يقضي أيامه في البلدات المجاورة ليريها لأي عابر. لن أخبرك عن الشهور التي يهرب فيها أحد منا فجأة، من دون أن ينبه الآخرين، وعندما يجد المنزل فارغًا يفكر في أنه إن آجلًا أم عاجلًا ستبتلعنا الغابات. وسنضيع إلى الأبد في تلك المحاولات المجنونة لإعادتك إلى هنا. حيث لم ترغبي في البقاء.

في صباح أحد الأيام جرى ساعي البريد ليسلمني خطابًا. على المظروف لم يكن مكتوبًا سوى اسمي. لا يوجد طابع ولا ختم. كنت أعرف الخط، إنه خطك.

قال من دون أن ينظر إليَّ:

ـ أحدهم ترك لك هذا على باب المكتب.

سألته وأنا أنتزعه من يده:

ـ من؟

ـ لا أعلم.

حاولت أن أتحكم في ارتجاف يدي. لا أعرف لماذا خطر ببالي أمي، عندما كانت تفتح بالمكواة الساخنة خطاباتي لتتأكد إذا كانت من صديقة بالفعل أم من رجل.

أمي العزيزة،

أكتب إليك بينما أنا بمفردي في حجرتي. كنت أنا من أراد الرحيل مع عمتي وزوجها. كنا نعرف بأنكما لن تأذنا بذلك، ولهذا السبب هربنا. هنا في المدينة يمكنني الدراسة ويمكنني أن أصبح أفضل. لا تتألموا من أجلي لأنني بخير ولأنني يومًا ما سأعود إلى كورون. إذا استمرت الحرب طويلًا لا تقلقي، نحن هنا في أمان. عندما سأطرق بابنا أتمنى أن يكون ما زال لديك أنت وأبي ومايكل محبة نحوي. عمتي وزوجها لا يبخلان عليَّ بشيء. سامحوهما إن استطعتم، وسامحوني أنا أيضًا.

ماريكا

منذ ذلك اليوم تغير الألم. مزق مايكل صورتكِ وطلب منا ألا نحدِّثه عنكِ مرة أخرى، بل ألَّا نذكرك حتى. توقف إيريش عن الجري ذهابًا وإيابًا، ولم يحاول أن يترك البلدة ولا أن يعيد البحث عنك مرة أخرى. بقي أمام النافذة ليدخن، من دون حتى النزول ليطعم الحيوانات. يفتح لها في الصباح ويغلق عليها في المساء. وبين هاتين الحركتين لا يحدث أي شيء. أنا أظلُّ في الفراش والمصاريع شبه مغلقة، والباب موصد بالمفتاح. شعرت بأنني بلا دموع. طوال الوقت أعيد قراءة خطابك الذي أحمله دائمًا معي. أعيد ما حدث في تلك الليلة بلا هوادة، وأسأل نفسي كيف لم أتمكن من سماع صوتك، وخطوات هذين الوغدين، والضوضاء التي يتسبب فيها تحميل الأشياء على العربة، وخنفرة الأحصنة في انتظار الرحيل أو هدير محرك السيارة عند تشغيله. كيف يمكن ألا يكون سمعك أحد في كورون؟ هل كنت نائمة أم حملاك أثناء نومك؟ هل كنت ترغبين في الرحيل أم أجبراكِ؟ هل كتبت أنت ذلك الجواب أم أرغماكِ؟

في أحد الأيام طرق أبي الباب وقال لي أن أخرج لأبتاع له بعض التبغ. جلس بجوار إيريش من دون أن يتحدث، جلسا هكذا، ساكنين أمام النافذة للنظر إلى السحب. ثم أخذه من ذراعه وقاده إلى الحظيرة ليضع الطعام للماشية. وجعله يربت عليها واحدة واحدة. قبل أن يرحل، جاء إليَّ، وأمرني بأن أعد العشاء وأجهز المائدة. وبجوار الحوض ترك سلة بها لحم، وخبز «البانيوتا» وبعض النبيذ.

يصبح الألم كالدوار. شيء معتاد وفي الوقت نفسه خفي، لا يتحدث عنه أحد أبدًا. كلنا، عندما يحدث أن ننسى كلمات ذلك الخطاب، سنحاول مرة أخرى لأعوام أن نبحث عنك، ولكن الآن نعرف أن محاولة البحث المنفردة تلك ليست سوى إطاعة لأمل، لم نعد حتى نشعر بأنه لدينا.

لا، لا تستحقين معرفة تلك الأيام المظلمة. لا تستحقين معرفة كم صرخنا باسمك. كم من المرات توهمنا أننا على الطريق الصحيح. إنها قصة لا حق لها بأن تحدث مرة أخرى في الكلمات. ولكنني سأحكي لك عن حياتنا، عن كيف استطعنا البقاء على قيد الحياة. سأقول لك ما حدث هنا في كورون، في البلدة التي لم يعد لها وجود.

الفصل الثاني

اندلعت الحرب. وكثيرون ممن قرروا الرحيل إلى ألمانيا في النهاية بقوا هنا. الخوف من المجهول وكذبات الدعاية، والغضب من هتلر، كلها أشياء ألزمتهم كورون.

كانت أيام يناير نهارها قصير وكئيب. تبدأ جميعها بفجر رمادي طويل. على جبال الأورلتس نرى القمة المُبيَضة وأسفلها قليلًا قمم الأشجار التي تحركها الريح المثلجة. في البلدة لا يبدو الناس قلقين، فقط أكثر تعبًا. متعبون من الفاشيين، متعبون من التعثر في الظلام.

كنت أخيط مع أمي التي الآن لم تعد تتركني قَطُّ بمفردي. علمتني أن أشتغل بالإبر، وكنا نجلس ساعات طويلة في صمت، كوعانا متلاصقان، على مقاعد المطبخ التي كنت أنسى حشوها بالقش. لم تكن ترغب في أن أتحدث عنكِ. عندما لم يكن أمامنا ما نغزله، تضع سلة فوق رأسي وتأخذني حتى النهر لكي أغسل ملابس مدير المصرف. إذا شردت وأنا أنظر إلى الفراغ كانت تقول إن عليَّ أن أعصر الملابس بقوة أكبر، حتى أتمكن من إخفاء الأفكار الخاطئة. كانت تردد بقسوة: «فقد وضع الله أعيننا أمامنا لسبب بالتأكيد! لأنه علينا النظر إلى هذا الاتجاه، وإلا كان وضعها لنا على الجانبين مثل الأسماك!».

بالنسبة إليها، هي التي عملت في الحقول منذ عمر التاسعة، وقضت أمسياتها تثبت صناديق الفاكهة بالمسامير، لم تكوني سوى شخص أناني، اختار من معه نقود أكثر.

فأنت إذن شريكة في الجريمة.

اعتقد الجميع أن الأمور ستسير كما حدث عام ١٩١٥ في هضبة كارست، حيث تقاتل الإيطاليون والنمساويون ولكن هنا في كورون ظللنا نجمع التبن ونجز العشب ونضعه ليجف على الجدران، ونأخذ الأبقار إلى المراعي الجبلية، نملأ أجولة الحليب ونصنع الزبدة، ظللنا نذبح الخنازير ونأكل لأيام السجق والسلامي. استمر أبناء الفقراء في الرحيل إلى عملهم كرعاة وراء الجبهة مقابل حذاء، وحفنة من النقود وبعض الملابس. انتظرتهم الأمهات وهن يحصين الأيام حتى عيد القديس مارتينو، وعندما عادوا جميعًا أقيمت الاحتفالات حتى المساء. انتظرنا أن يذوب الثلج وأن تعيده إلينا رياح الألب، صامتًا وثقيلًا. أرقدنا أمواتنا في صمت. ابتلعنا مرارة ضرورة أن نحارب مع

النمساويين لنجد أنفسنا إيطاليين مرة أخرى. استطعنا أن نفعل كل شيء لأننا كنا مقتنعين أنها الحرب الأخيرة. الحرب التي ستمحو كل الحروب. لهذا أصابنا جميعًا خبر الصراع الثاني مع ألمانيا، التي على وشك أن تغزو العالم كله، لوهلة، بالصدمة، ولكننا خدعنا أنفسنا بأن الجبال ستصبح مرة أخرى جدرانًا تعزلنا، وأن إيطاليا تلك، التي يجب أن نشعر بأننا جزء منها، ستصبح محايدة حتى النهاية. بل منحتنا الأخبار الأولى للحرب بعض الراحة: «على الأقل الآن سيتركون قصة السد تلك»، «الآن سيكون لديهم شيء آخر يشغلهم»، «أخيرًا ستصبح ماشيتنا ومزارعنا في أمان». هكذا ردد الرجال في الحانة. وهكذا قالت النساء أمام الكنيسة. بل هناك من سكان كورون من احتفل بالحرب. أخذ جيرارد يدور بدورق النبيذ وهو يرفعه في الهواء ويصيح: «الحرب لهم والسلام لنا».

من بقي هنا، الآن وجيوش هتلر تتقدم، كان يتفاخر بأنه أحسن الاختيار. ويتخيل تلك الأعداد القليلة التي هاجرت إلى ألمانيا وهي تحارب في الصفوف الأمامية على الحدود الشرقية أو مغروسة في الوحل، من يدري في أي جزء من أجزاء أوروبا.

ثم إن الإيطاليين، منذ أن اندلعت الحرب، توقفوا عن الحضور إلى هنا. كنا نرى دائمًا شاحنة العساكر، وحركة سريعة لوسائل حربية جعلتنا نتوقع أكثر شيء نخشاه، ولكن أولئك الأشخاص المغرورين والحقائب في أيديهم لم يظهروا مرة أخرى.

عيد الميلاد الأول من دونكِ قضيناه مع أمي وأبي، اللذين عجنا «النيوكي» وطهوا حساء الدجاج. تناولنا الطعام في صمت ولم نختبر مثل هذا الصمت الشديد من قبل في غداء عيد. أخذ أبي يصرف الأصدقاء والعملاء الذين يمرون ليهنئوه بالعيد، في دقائق قليلة. سمعنا العازفين يتجولون عبر قرى الوادي، والموسيقى التي رقصتِ أنت وأخوك على أنغامها في الشارع العيد السابق مع الأطفال الآخرين. طهت أمي، وحاكت، ذهبت وعادت من النهر كثيرًا من دون أن تتوقف للحظة واحدة. لا أعرف أين عثرت على كل هذه الطاقة. فجأة لم تعد تبدو مسنة بالنسبة إليَّ. من حين إلى آخر، ونحن بمفردنا، أنفجر وأبكي وهي تمسك بيدي. لم أشعر من قبل أنني ابنة، إلى هذا الحد، إلا في الوقت التالي لهروبك.

مضى أيضًا ذلك الشتاء، وفي أبريل بدت الشمس كضوء البلور، وتنقل عامل المداخن من مزرعة إلى أخرى ليصلح المآزيب. الآن لم نعد نترك النيران موقدة، لأنها تسبب غيرة البلدة. يستخدم الآخرون أفرع الأشجار وعيدان

الخشب ليستدفئوا، في حين كان لدينا خشب الأشجار الذي أحضره مايكل من ورشة أبي. تعلم النجارة وترك المدرسة. قال العمال إنه نجار ماهر بالنسبة إلى شخص في الخامسة عشرة من عمره.

عادت الحقول التي كساها الثلج لتخضر، ولكن كان العمل عليها مع الماشية مرهقًا. يبقى الحليب في الدلاء لأيام ولا يمكن لأحد بيع لتر واحد. يشعر إيريش بالغضب ويركل الدلاء، وأبقى أنا صامتة أشاهد البقع البيضاء يشربها الوحل المسحوق تحت حوافر الماشية.

استمررت في نسج الصوف وصنعت منه أكوامًا على الأرض. وكان يأتي مسن بعينين فاتحتين وكتفين منحنيتين ليأخذه. يدفع لنا مبلغًا بائسًا، ولكن على الأقل كان يكفينا لنتدفأ. يصنع بذلك الصوف أزياء وأدوات للجنود.

يقول وهو يحمل الصوف على عربته ذات المحرك: «عندما تدخل إيطاليا الحرب سيزداد العمل». تسأل أمي بحماس وكأن المسن هو من سيقرر ذلك: «ومتى ستدخل إيطاليا الحرب؟». يكشِّر مقلصًا وجهه المتجعد، ثم يرحل بعربته التي تنشر في الطريق رائحة سيئة شبَّعت الهواء.

على كل حال، بالإضافة إلى ما قاله المسن، أصبحت العديد من الطرقات صعبة العبور، مغلقة بفعل نقاط التفتيش، ويومًا بعد يومًا، وساعة بعد الأخرى، أصبحنا نحن أيضًا نشعر بأن الحرب على وشك الاندلاع. في المساء تبدو الطائرات خلف الجبال وكأنها أسراب من الدبابير وكانت أمي تقول إنها جهزت صندوقًا به قش وأغطية، وتردد فزعة: «يمكن أن تسقط القنابل عن طريق الخطأ على كورون أيضًا، حيث إنها قريبة جدًّا من النمسا!». فيصيح أبي بصوته الذي أصبح أجش أكثر: «اذهبي أنت إلى الحظيرة، أما أنا فأريد الموت على فراشي، وليس فوق الروث».

في صباح أحد الأيام انتظرتُ أمي، إلا أنها لم تحضر. وفي ساعة الغداء ذهبت إلى مزرعتها. كان الباب مفتوحًا ولا أحد بالقرب من المدفأة. ناديت ولكن لم يأتِ أحد لاستقبالي ولم يُجِب. ناديت مرة أخرى، أقوى، وأنا متسمرة أنظر إلى الأواني النحاسية المعلقة على الجدران. عندما قررت الدخول إلى الحجرة وجدتها على الفراش، منكمشة بجوار أبي، الذي كان يرتدي بذلته الزرقاء، التي ارتداها يوم عرسي. حلقت له ذقنه وصففت له شعره. كانت متعلقة بكتفيه، تبكي بهدوء، وعندما يعلو البكاء تأخذ رأسه بين يديها وكأنها تمسك برأس عصفور.

ـ مات أثناء نومه.

ـ لماذا لم تأتِ لتناديني؟

قالت من دون أن تسمعني:

ـ مات هذه الليلة.

كررتُ:

ـ لماذا لم تأتِ لتناديني؟

عندما التفتت إليَّ أخيرًا أخذت يدي ووضعتها على يد أبي التي ما تزال دافئة. اقتربت منه أكثر، ولا أعرف كيف وجدت نفسي ممددة على طرف من الفراش. أشتم رائحة ملابس أمي، التي تشبه رائحة رماد المدفأة، وأستمع إلى بكائها، ومن حين إلى آخر أتشجع وأبحث من جديد عن يد أبي التي ازدادت برودة.

في الجنازة حمل التابوت ثيو وجوستاف، ومعهما إيريش وبابي. كان مايكل فخورًا بأنه من صنعه.

قال لي:

ـ سيحلم جدي هناك في الداخل أحلام الصالحين.

الفصل الثالث

في أحد أيام ربيع عام ١٩٤٠ علقوا أوراقًا على جدران مبنى البلدية. الكلمات الإيطالية المعتادة التي تجبر على أن يرفع من يقترب منها أنفه. بعضهم يتوقف ليلقي نظرة، يبرطم بينما يركل حصى بقدمه، ثم يرحل بعربته المحملة بالتبن أو بدلاء الحليب بين يديه. القلة في كورون يعرفون القراءة ولكن لم يكن أحد يفهم تلك اللغة التي لم تكن سوى لغة الكراهية.

دخل إيريش إلى المنزل بخطوة سريعة وجرني للخارج. سرنا ببطء لأن الشمس تعشي بصري وهو يجذبني بقوة شديدة حتى إنني كدت أسقط في بعض اللحظات. أمام لوحة البلدية أمرني بأن أقرأ له المكتوب. شعرت بأنني كريهة لأنني أمنح صوتًا لتلك الكلمات التي لا تستحق أن يسمعها أحد، وفكرت أنه كان كريهًا بدوره لأنه جعلني أترجمها. مكتوب أن الأوراق ستظل معلقة على الجدران لمدة ثمانية أيام، ثم سينزعونها. مكتوب أن لتلك الأوراق سلطة رسمية وأن علينا أن نتخذ إجراء ما. ومكتوب أيضًا أنه من خلال مرسوم صدَّقت عليه الحكومة الإيطالية مُنح الإذن ببداية بناء السد.

يستمع إيريش إليَّ متجمدًا، ضاقت عيناه كثقب الإبرة. بقيت ساكنة وأنا أراقبه وهو ينظر إلى الورقة، تغمره تلك الكلمات الغامضة.

علق وهو يبتلع دخان السيجارة:

ـ ستُمحى كورون وريزيا من الوجود.

أخذني إلى المنزل، ثم رأيته وهو يبتعد متجهًا إلى الوادي، ومرة أخرى بدا لي كجثة ووحيدًا في مواجهة العالم. عندما عاد في المساء جلس مثل العاجز، من دون حتى أن ينزع حذاءه المتسخ بالطمي. شرب مياهًا كثيرة، ثم أكل «البولينتا» بالحليب. لم أعرف كيف أدخل في صمته، مكثت بغرابة أنتظر أن يتحدث وشعرت من جديد الشعور نفسه، عندما أحاول أن أواسيه ولا أستطيع.

ـ جميعهم واثقون، يقولون إن المشروع سيتغير. وإنه ليس سوى إعلان آخر معتاد. كارل في الحانة يردد أنه عندما تكون الحرب على الأبواب لا يمكن أن يبدأ أحد في بناء سدود.

أجبته:

ـ ربما كان على حق.

صاح:

ـ إنهم جميعًا حيوانات. بدلًا من أن يرفعوا إصبعًا يخترعون الأسباب!

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ الفاشيون و«مونتيكاتيني» يعلمون أن هناك خطر الحرب، وأننا نحن الرجال سرعان ما سنرحل لنحارب، وأن هنا لا أحد يفهم الإيطالية، وأننا لسنا سوى فلاحين! وأنها أنسب لحظة ليستغلوا كل هذا.

من الطريق الذي يؤدي إلى ميرانو وصلت ثلاث شاحنات، بلون الحديد، عجلاتها ضخمة إلى حد أنها تتسبب في سُحب من الأتربة. طوال اليوم تتحرك بسرعة ذهابًا وإيابًا حتى ريزيا. يتحدث هؤلاء الغرباء الإيطالية فيما بينهم، يفتحون أذرعهم ويشيرون بأصابعهم إلى بعيد وكأنهم يتبعون طيور السنونو. كان الرجال يعملون في الحقول، في حين نجلس، نحن النساء، على العتبات وننظر إليهم يثرثرون بلغتهم. البعض ينفعل وكأنه على وشك البحث في الأدراج، حيث كانت البلدة صغيرة جدًّا وقديمة جدًّا، وكأنها منزل. ينظر بعضنا إلى بعض لنتشجع، ثم نأمر أحد الصبية أن يجري ليستدعي الرجال. أخذ الفلاحون يصفرون للفلاحين الآخرين. في منتصف الظهيرة توقف الجميع عن الحرث وامتلأت الحظائر وبدأت الماشية المحبوسة في دفع أحدها الأخرى وهي تطلق أصواتًا خشنة. كان إيريش الأخير في الوصول. وقف وذراعاه معقودتان يستمع إلى أحد الشباب يحاول أن يستفسر بالإيطالية عما أتوا ليفعلوه. كان العمال في ذلك الوقت يخططون الأرض بصلبان من الجص يلصقونها على الطمي. عندما يمرون بجوارنا يحاولون ألا يستمعوا إلى أصواتنا التي تضايقهم. تبادل الفلاحون النظرات الجانبية وبمرور الساعات أصبحوا أكثر عصبية، يحكون أياديهم، ويشدون من قبضاتهم. منازلنا والكنيسة والطرقات، وكل شيء أصبح بداخل تلك الحدود التي لم نكن نعرف معناها. وفيما عدا ذلك لم يكن هناك سوى بداية الجبل وأشجار «اللاركس» التي تنمو معوجة بفعل الاندفاع المستمر للرياح.

بعد ذلك ببضع أمسيات، نزل من سيارة سوداء شخصان يرتدي كل منهما سترة ورابط عنق. أحدهما نحيف والآخر سمين. دعوانا إلى الحانة وسرنا خلفهما كالماعز. بمجرد أن جلسا أحطنا بهما واحتشدنا حولهما. طلبا بالألمانية جعة للجميع. شربنا، البعض بخجل والبعض الآخر دفعة واحدة.

استمرا بالحديث بلغتنا:

ـ الحكومة أرسلتنا، أتينا من روما. لقد صدَّقوا على مرسوم قديم ينص على بناء السد.

ـ سيكون نظامًا معقدًا من السدود التي تتعلق بالكثير من بلدان الوادي.

كانا ينطقان كلمات قليلة في المرة الواحدة، بألمانية غير عادية ولكنها دقيقة، ثم يرتشفان بعض الجعة ويمسحان الرغوة بظهرَي يديهما المشعرتين. أمسكُ بذراع إيريش الذي أصرَّ ألا أذهب بعيدًا.

سأل أحد الفلاحين:

ـ كم مترًا سترفعون مستوى المياه؟

ـ لا نعرف هذا حتى الآن.

سأل آخر:

ـ وإذا غطت المياه منازلنا؟

قال النحيف:

ـ سنبني لكم منازل أخرى في الجوار.

وقال السمين الذي كان لديه شارب رفيع ولا توجد أي مبالاة في كلماته: ـ منازل أكبر وأحدث.

وأضاف وهو ينظر داخل كوب الجعة: ـ ولكن الآن لا تقلقوا. تلك الأعمال تستغرق أعوامًا، ربما عقود.

تعالت على الفور أصوات الفلاحين واحدًا فوق الآخر. كانا هما يبتسمان، أمام طريقتنا الهمجية، في هدوء داخل سترتيهما المصنوعتين من الصوف الفاخر. انتظرا أن يهدأ الصخب ثم أضافا: ـ ومن سيفقد حقلًا سيحصل على تعويض.

صاح أحدهم بأن أبقاره لا تأكل التعويضات. آخرون ضربوا بقبضاتهم، وأخذوا يسبون ويصرخون بأنهم من دون حقول ستنفق ماشيتهم جوعًا.

وسأل إيريش:

ـ وإذا لم نقبل تعويضكم؟

ومع صوت إيريش صمت الجميع. أفرغ الاثنان ببطء الكوبين، وهزا كتفيهما. نظرا إلينا بوجهين محايدين. توتر الصمت الآن وكانت تكفي كلمة واحدة ملتوية ليتحول إلى معركة. نظفا مرة أخرى وجهيهما بظهري يديهما وأخيرًا نهضا واختلطا بالمجموعة.

عثر أحدهم على الشجاعة ليكرر السؤال، فقط عندما أصبحا بالفعل خارج الحانة وكانت رائحة الأرض المبللة بالتبن قوية. ذلك الهواء دفع على بلع الريق، وتسببت رؤية مبنى الجرس في تنهدات طويلة. ومن بعيد ظهرت النساء مع الأبناء النيام على أذرعهن، وأفواههن ملتصقة بزجاج النوافذ الذي غبره أنفاسهن.

وقبل أن يصعدا إلى السيارة قال النحيف: ـ إذا لم تقبلوا التعويض ستحدث مشكلات.

ثم أعلن السمين قبل أن يغلق باب السيارة بقوة: ـ يوجد قانون يُدعى الإخلاء القسري.

عندما رحلت السيارة لم يعد الهواء معبأً برائحة الأرض المبتلة ولا برائحة التبن، ولكن لوَّثه العادم. بقينا نسعل حتى اختفت السيارة عند المنحنى.

عدت أنا وإيريش إلى المنزل ونحن نسير بمحاذاة المدق في صمت. كان هناك شلال من النجوم وبدا القمر معلقًا في السماء. تصفر صراصير الحقل في جوقة.

قال ملقيًا بعود ثقاب أرضًا:

ـ جاء اليوم الذي فيه إذا أردنا الحفاظ على كرامتنا لا بد لنا من ارتكاب جريمة قتل.

الفصل الرابع

لم أذهب إلى الميدان لأستمع إلى «البوديستا» وهو يقرأ التصريحات الخاصة بدخول الحرب. بقيت في المنزل مع أمي نغزل خيوطًا من الصوف. بعد أسابيع عثر ابن الخباز ـ أحد القلائل الذين معنا ومع عائلة مايا اختاروا البقاء ـ على بطاقة استدعاء للجبهة في صندوق البريد. وعلى الفور أصبح مصدر الخوف هو استلام بطاقة الجيش الملكي الملعون. تخرج النساء عند مرور موظف بلدية، أو أي دراجة بخارية أو عربة «جيب» العساكر، إلى الشوارع كأنهن حارسات، بأياديهن المتسخة بالدقيق، وشعورهن المضمومة بأفضل ما يمكن في عجالة. أخريات يغلقن بالغريزة المصاريع ويجرين ليتمددن في الفراش. يقول إيريش إنهم سرعان ما سيأتون ليأخذوه هو أيضًا.

وهكذا أصبحت السيارات المصفحة التي تمر عند الوادي تفزعني فجأة. أمكث على عتبة الباب أنظر إلى وجوه الجنود المكدسين في مقصورة الشاحنة، وفكوكهم المربعة أسفل خوذات تلمع في الشمس، وأياديهم الخشنة ممسكة بالمدافع الرشاشة ذات حزام الكتف. وجوه قاتمة، غلّظت ملامحها قصة الشعر القصيرة واللحى المحلوقة، فكرت عندما كانت مجرد وجوه مجهولة لشباب بشعر أشعث ولحية نمت لبضعة أيام، وكانوا يطاردون الصبايا من دون أن تخطر الحرب على بالهم.

لم يكن إيريش يتحدث، يدخن فقط كالمدخنة ويتنفس ببطء. يخاف مِن تركنا بمفردنا أكثر من خوف الذهاب إلى الجبهة.

يردد قبل أن ينام:

ـ إذا جندوني اعتني أنت بمايكل! لا تفكري في أي شيء آخر.

ذلك الشيء الآخر هو أنتِ.

مرت تلك الشهور ببطء ولكن ملؤها التوتر. شعرنا جميعًا أننا مسجونون في انتظار لا نهاية له يفقدنا أعصابنا ويجعلنا نختبئ في منازلنا. كنت أفتقد أبي، ابتسامته الطيبة، وقدرته على جعلي أرى الأشياء من منظور آخر. لم يكن إيريش مثله. بالنسبة إليه كل شيء يعني المواجهة، والشجاع هو فقط من يصارع بكل قوته، حتى وإن حسم القدر هزيمته فعلًا.

في ذلك الوقت كان مايكل قد أصبح رجلًا بالفعل بصوت خشن وكتفين عريضتين. وبدأ يتعامل معنا بلامبالاة غريبة. بمجرد العودة من العمل يبدل ملابسه ويذهب ليتجول مع شباب لم أرَهم قَطُّ ولا يسكنون في كورون. يقول إيريش لي إنهم جميعًا من النازيين وسيتجندون في أقرب فرصة، أناس أكثر قسوة واندفاعًا من الجنود البسطاء.

وكنت أسأله: «أي شر صنعه بك النازيون؟ هل تفضل القميص الأسود للدوتشي؟». يهز رأسه ويضغط بكفيه على صدغيه، ويقول: «سيصنعون الشر بالجميع يا ترينا».

عندما كان مايكل يخرج أسأله: «على الأقل قل لي إلى أين أنت ذاهب». فيجيبني بعجرفة: «إلى الخارج». ثم ينظر إليَّ بطريقة تنزع مني الرغبة في السؤال عن أي شيء آخر.

منشورات الأخبار التي وصلت إلى البلدة في خريف عام ١٩٤٠ كانت تتحدث عن انتصارات الجبهة الإيطالية-الألمانية، ولكن أيضًا عن مسيرة ما زالت طويلة لهزيمة الحلفاء. يمر الضباط الفاشيون ليسلموا بطاقات مكتوبًا عليها اسم ولقب المجندين، وإذا وجدونا نحن النساء يوضحون أن عدم الذهاب عواقبه إعدام الهاربين من الجندية رميًا بالرصاص. لم يعد للجنود الذين كنا نراهم في الجوار وجوه الصبية ولا الفكوك المربعة، ولكن أيادٍ ثقيلة وعيون جافة، تجبرك على أن تخفض نظرتك. غيرتهم الحرب.

أتوا إلى المزرعة في أحد أيام شهر أكتوبر. كانت السماء صافية والهدير البعيد للطائرات يبدو نذيرًا لعاصفة. كانا اثنين، وفي حين يطرحان عليَّ أسئلة يسترقان السمع ليلتقطا أي أصوات من الحجرات.

ـ نبحث عن إيريش هاوزر.

أجبت:

ـ ليس هنا.

ـ لا بد أن يقدم نفسه لقيادة ماليس.

ليلة قبل رحيله أراد إيريش أن نمارس الحب، ولكن فعل ذلك بغضب ودون أن يسترخي. ثم جلس مستيقظًا يدخن في الغرفة المظلمة.

وأخذ يردد:

ـ اعتني بمايكل.

أرسلوه إلى إقليم كادوري، ومن هناك إلى ألبانيا، ثم إلى اليونان، حيث لم يستطع هؤلاء الأبالسة من الفاشيين أن يحصلوا على شبر من الأرض من دون اللجوء إلى الألمان. كانوا يقولون إنها جبهة سهلة، إلا أن الكثيرين ماتوا على الجبهة أو عادوا إلى منازلهم مشوهين.

من حين إلى آخر يصلني خطاب. أحيانًا تحذف الرقابة صفحة كاملة منه، ويُقرأ فقط السطر الأخير:

احضني لي مايكل. المخلص إيريش هاوزر.

طلبت من أمي أن تأتي لتعيش معي. وضعَتْ نعلًا في حذاء إيريش ليناسب مقاسي وفي الصباح كانت تلف لي رقبتي بشال إذا انفك وصل إلى قدمي. كنت أخرج الأبقار والغنم القليلة المتبقية لدينا وأجذب القطيع للخارج. كانت المراعي في أسفل الوادي ما زالت خضراء، وبالمكوث في تلك الأنحاء لم يبدُ حقًّا أن هناك حربًا، وأنهم جندوا إيريش. في المرعى أقابل ماشية يرعاها مسنون بقوا في المنزل. مسنون مثل أمي، اضطروا أن يستجمعوا قواهم من جديد لأن أبناءهم الذكور رحلوا إلى جبهة القتال، ولم يكن هناك رجال آخرون يمكنهم العناية بالنساء والأحفاد.

عندما أجلس على إحدى الصخور لأتناول الخبز والجبن، يبدو لي أنني إيريش، وأن لديَّ أفكاره نفسها. أحيانًا أحدق بقوة شديدة في السماء حتى إنني أقتنع بأنني كنت دائمًا فلاحة. ألتفت وأنظر إلى البلدة الصغيرة هناك في الأعلى، وتجتاحني نفس مشاعر إيريش: بأن هذه الأرض ملكي، وأن لا أحد في إمكانه طردي منها، وأنني لا يمكنني الوقوف ساكنة لمشاهدة هذا. وأشعر بأن الفاشيين مجرمون لأنهم يرغبون في إغراقنا، ولأنهم جرونا في حرب وأخذوا باربارا بعيدًا. وبأن النازيين هم أيضًا مجرمون لأنهم وضعوا الواحد منا في مواجهة الآخر، ويريدون رجالنا فقط ليصنعوا منهم طعامًا لمدافعهم.

عندما يحل الظلام أصعد من جديد مع القطيع ومع جراو، الذي أصبح فراؤه فضفاضًا، ولم يعد يجري كما كان. أتوقف لأنظر من بعيد إلى العمال وهم يُعدون موقع البناء الخاص بالسد خارج البلدة، بالقرب من النهر. لم توقفهم الحرب. بل بالعكس، يعملون الآن أثناء الظلام. يصوبون على الأرض مصابيح ضخمة تنشر من بعيد ضوءًا يتسبب في الحرائق. كان العمال بالمئات

ويعيشون في أكواخ بَنتها شركة «مونتيكاتيني». لم يكن لديهم أي صلة بنا. كانوا كحيوان الخلد. يحملون أنابيب، وأجولة أسمنت ومعاول. أثناء ذلك، تأتي وتذهب الشاحنات، والجرافات، والحفارات التي تبدو كالوحوش. لم تعد أصوات أجراس الأبقار ولا آلات جز الحشائش تصدع في الوادي، فقد قتلت ضوضاء الشاحنات والجرارات الصمت.

في كورون لم يعد أحد يتحدث عن السد. كان يمكن الوصول إلى النهر بالدراجة في نصف ساعة، ولكن لم يعد أحد يبدل دراجته حتى هناك. بالنسبة إلى الفلاحين والرعاة لا وجود للعمال. وكان المسنون يقولون إنه لا يوجد رجال هناك بالفعل. قال لي إيريش مرات عديدة: «إن من يضع إصبعه على شفتيه يمنح الفرصة للأشياء البشعة أن تستمر».

منذ أن رحل وأنا أشعر بأنني كالحيوان الضال. تفوح مني، أنا أيضًا، رائحة الحظيرة والعرق، خشن جلد يدَي. أصبحت فظة الطباع، لم أعد أنظر إلى المرآة وأرتدي دائمًا الكنزة الممزقة نفسها، وشالي يغطي أنفي، وشعري مرفوع بعود خشبي.

يوم السبت تدق النساء على الباب بخطابات من أزواجهن، وأجلس أمام الطاولة لأقرأها لهن. في الحقيقة، لم يكن هناك الكثير ليُقرأ لأن الرقابة كانت تحذف تقريبًا كل شيء. ولكنهن عنيدات، ينزعن مني الورقة ويضعنها في مواجهة الضوء قائلات إنهن يرين علامات. عندئذٍ لأتخلص منهن كنت أخترع. أقول لهن إن أزواجهن بخير، يأكلون كل يوم، ولم يكونوا مشغولين كثيرًا في المعارك. أو إنهم لا يعرفون موقعهم بالتحديد، ولكن الوجبات لا بأس بها، وسرعان ما سيعودون. كنت أختم بعبارات حب معسولة وهكذا تعود الزوجات إلى منازلهن سعيدات. إحداهن، وكانت تُدعى كلاوديا، تحملق بعينيها وتصيح بدهشة: «لقد جعلته الجبهة رومانسيًّا»، وتذهب مرتبكة. كانت النساء لتشكرني تترك لي بعض الفكة، آخذها وأسلمها لأمي. لم يكن يهمني فعل أعمال خيرية.

عندما يصبح المنزل فارغًا مرة أخرى، أفتح النوافذ وأخرج الهواء النتن، أجلس على المقعد وأنظر إلى الحجرة. إذا شعرت بالرغبة في الكتابة، لم أكن أكتب لكِ. بدت لي الكتابة إلى أبيك وكأنني أمحوك.

الفصل الخامس

نجح أخي بابي في ألَّا يُجند. بعد أن وصلت إليه البطاقة أخذ يأكل العرقسوس فقط لأيام. وتقدم إلى الفحص الطبي بوله أخضر ودرجة حرارته أربعون. إذا انتظر قليلًا كان يمكن أن يموت مسمومًا. وذهب بابي ليعمل بنَّاءً بالقرب من مدينة سوندريو، في شركة صغيرة تبني منشآت جاهزة الصنع لتُرسل إلى القيادات العامة. أتى لزيارتي بالحافلة في أحد الأيام الممطرة. جاءت معه فتاة صغيرة الحجم، عيناها لونهما أزرق سماوي. كانت أنيقة واسمها إيرينه على اسم أمي. قال على الفور إنهما يرغبان في الزواج، وهو الشيء الذي لم أكن لأصدقه قَطُّ. كنت أعتقد أن بابي يرغب فقط في أن يشرد في العالم.

لم يحضر الفرح سوى عشرة أشخاص. ذلك اليوم طلبت مني أمي أن أتزين وأعارتني عقدها اللؤلئي الذي ارتدته يوم عرسي. في المطعم جلست بجوارها لأن عائلة إيرينه كانت تتحدث بلكنة غريبة وحاولت أن أترجم لها بأفضل الطرق وأجملها القليل الذي أفهمه. أكلت كل شيء، ليس فقط لأملأ معدتي. كنت أشعر بأنني متوحشة وازددت نهمًا بسبب الوحدة. أفكر في الحظيرة وأتوق للحظة العودة. ثم أصابتني زهور الجيرونيوم في صالة الحفل بالحنين. تذكرت وجه مايا وقُبلات باربارا. وخطر على بالي إيريش، الذي ارتدى في يوم العرس رباط عنق على شكل فراشة، ضيقة، وكان يرغب بشدة في خلعها. وخطرت أنتِ أيضًا في ذهني، فمنذ زواجي كنتِ اشتياقًا لم أعِ وجوده.

في نهاية الغداء قال أخي إنه سعيد لأنه تزوج إيرينه وإنه، بالفعل، من دونها لا يعرف أي حياة سيئة كان سيعيش. لا أعرف كيف حدث هذا وكيف طارت الأعوام وتوقفت أنا وبابي عن التعامل كإخوة. لطالما أحب أحدنا الآخر بطريقة مجردة. قال لي بابي إنه غالبًا ما يتذكر عندما كنا نقضي أيام الآحاد جميعنا معًا، أو عندما كان يدغدغ جانبَي أمي العريضين، لأنه تضايق من أنها لا تضحك على نكاته التافهة. قال أيضًا إنه في سوندريو يعيش جيدًا ولا يفتقد كورون كثيرًا.

ـ أحب عملي كبنَّاء، كان أبي سيسر مني.

ـ كان بالفعل مسرورًا بك، كنت ابنه المدلل.

ـ هل تتذكرين طبعه الصعب؟

اعترضت:

ـ ولكنه كان رقيقًا كالزبدة!

صاح وهو يضحك بمفرده:

ـ ربما معكِ أنتِ، معي أنا كان كالبرونز وليس كالزبدة على الإطلاق!

في اليوم التالي صحبته ليأخذ الزهور إلى المدافن. في الطريق طمأنني أن إيريش سيعود سليمًا معافى لأننا جميعنا بأمان مع هتلر، كذلك الجنود الإيطاليون.

قال وهو ينظر لشاهد قبر أبي:

ـ لقد سممت نفسي بالعرقسوس لأني جبان، ولكنني أثق بهتلر.

ـ إذا كنت تجندت كانوا سيرسلونك أنت أيضًا إلى منطقة سليسيا، أو لا أحد يدري أين، مثل الآخرين الذين رحلوا عام ١٩٣٩ إلى «الرايخ».

كرر من دون أن يمنح أي أهمية لكلماتي:

ـ أنا واثق بأن الحرب ستنتهي في صالحنا.

قلت وأنا أشير إلى قبر أبي:

ـ لم يكن لديه أي من هذه الثقة.

عندما استقل بابي وإيرينه وعائلتها الحافلة ذهبت إلى الحظيرة لأحلب الأبقار، ولكن آلمتني يداي. أتت أمي لمساعدتي قائلة إنها هكذا ستصاب بالتهاب الضرع وسأجدها ملقاة أرضًا من الألم وستوقظنا في قلب الليل. عندئذٍ أخذت أضغط على ضروعها بسرعة، حتى لم أعد أشعر بالألم في كفي. تربت أمي على كتفَي وكأنها توبخني: ـ تقوي يا فتاة، ولا تضلي وسط أفكارك.

بالنسبة إليها الأفكار هي العدو الأكبر.

أيام الأربعاء تأتي مايا لزيارتي. كنت أنزل من الجبال والظلال لم تكن قد انتقلت إلى جانب جبل الأورتليس، أنزع عني عرقي وأرتدي ملابس نظيفة. كانت أمي سعيدة لأن مايا تأتي لتزورني. تعد القشدة وتضع ملعقة منها على الحليب، وتقول: ـ تناولاها كلها لأنها ستقسو في الغد ولا بد من قطعها بالسكين.

أذهب أنا ومايا حتى النهر. فمراقبة موقع البناء إحدى الطرق التي أشعر بها أنني أقرب لإيريش. كانت الحفارات قد حطمت كل شيء، نزعت أشجار «اللاركس» و«التنوب»، وحفرت نفقًا ضخمًا. تتحرك الشاحنات ذهابًا وإيابًا من فالّيلونجا مُحملة بالتراب وحجارة المحاجر التي يردمون بها الحفر. الآن أصبح تخيل السد أسهل. في سان فالانتينو كانوا قد بنوا سدًّا ضخمًا وصنعوا منه خزان مياه، غذى مراكز بلدتَي جلورينزا وكاستيلبيلّو. ننظر أنا ومايا في ذهول. رأينا العمال وهم يتحركون في المكان، مشغولين كالنحل، يضعون العلامات على الأرض التي تسير فوقها الجرارات، وتثير عواصف من الغبار. إذا حاولنا طرح بعض الأسئلة، يرفع عساكر الدورية حواجبهم ولكنهم لا يجيبون. في يوم أحد مُشمس بقينا في الخارج طوال اليوم، ورويدًا رويدًا وصلنا إلى جلورينزا وهناك أيضًا كانت مواقع العمل والآلات والعمال بالمئات يؤدون آليًّا الحركات نفسها. بدا كأن الوادي كله قد وقع رهينة في قبضتهم. أمام صمتنا، وتحت أعيننا.

عندما عدنا قلت لمايا إن أولئك العمال هم بلا شك فقراء ولإحضارهم إلى هنا شمالًا من أقاليم الفينيتو أو أبروتزو أو كالابريا لا بد أنهم كانوا يتضورون جوعًا، ولا بد أن بناء السد يمثل لهم ثروة. عمل مضمون لشهور وربما أعوام، ولن يذهبوا إلى الجبهة. عندئذٍ أخذت مايا تفكر، وثنت شفتيها الرفيعتين إلى أسفل، وقالت وهي تتنهد: ـ لم يعد أحد هنا يعرف ممن عليه أن يغضب.

واصلنا الذهاب لمشاهدة الموقع حتى حلول الشتاء وأصبح من المستحيل قطع الطريق بالدراجة. فهي تتزحلق مع كل منحنى وتفلت العجلات باستمرار. وفي النهاية نتقاذف بكرات الثلج، كنا نضحك ونحن نشعر به يدخل تحت ملابسنا. مع كل كرة نصرخ بعبارات مثل: «اللعنة على الحرب!»، «اللعنة على الفاشيين!»، «اللعنة على السد!». وكنا نستمر في ذلك حتى تؤلمنا أذرعنا وتتجمد أصابعنا.

كنت كسولًا، ولكن مايا كانت ترغب في أن تخرج أيضًا في الشتاء. تحب المشي على البحيرة المتجمدة. لم تكن أمي تمنحني الوقت لأفكر، تطردني كفأر من الحظيرة.

تقول:

ـ اذهبي، لا بد أن أغسل الأرض وأنت تعطلينني!

عندئذٍ أخرج لأرضيها ولكن بمجرد أن أطأ خارجًا أتوسل لمايا لتأخذني إلى مزرعتها لأنني لا أريد حتى أن أرى البحيرة المجمدة. يكفيني أن أنظر إليها لأحلم في الليل بأنني أسير فوقها معكِ. كان حلمًا جميلًا ولكنني أخشى من

تكراره. أنا وأنت نعبرها ويدانا متشابكتان حتى نضع قدمينا في هوة، ونسقط، ولكن من دون أن نموت. نظل هناك تحيط بنا المياه الفاترة. ونسبح بلا أي وزن. ونعود لتصبح الواحدة هي العالم كله بالنسبة إلى الأخرى.

في منزل مايا نجلس أمام المدفأة التي تئز. تلقي ببعض الأفرع في النار ورويدًا رويدًا أشعر بالدماء تتدفق من جديد إلى أطراف أصابعي. عندما كانت تذهب لتحرك الشعلة بالمِسعر يبقع ضوء الجدران وينير كل شعرها الأشعث. مع مايا كان في إمكاني التحدث عنك. كنت أحكي لها كيف كنتِ وعن طبعك، وعن الإجابات الواعية التي يمكنك وأنت مجرد طفلة في عمر العاشرة أن تردي بها.

أقول لها بخجل غريب:

ـ الآن لن أعرفها إذا رأيتها في الطريق، لا بد أنها قد أصبحت امرأة الآن ولا تتذكر أي شيء عن طفولتها.

كانت مايا تستمع من دون أن تقول أي شيء، تتنهد ورأسها مائل إلى الخلف. عندما لا أقوى على تحمل صمتها، أضع بين يديها خطابك وعندئذٍ تقول لي هي أن ألقي هذا الخطاب البغيض بعيدًا إلى الأبد. وإذا طلبت منها أن تلومني على أخطائي تجيبني بأن الحياة هي خليط من المصادفات ولا معنى للتحدث عن الذنوب. ثم تقوم فجأة وتعبث بيديها على وجهي وتطلب مني المساعدة في عجن «الدامبلنج» أو في إعداد خشاف التفاح.

ولكن في أحد الأيام قاطعتني بقوة، وقالت إنها تعبت من بكائي ولم تعد تتحملني. وصاحت: ـ مع الألم لا بد من الوصول إلى العمق، للعمق أكثر مما تفعلين أنت. لا بد من الوصول إلى اللحظة التي ترغبين فيها بإلقاء حياتك للكلاب، لأنه هكذا فقط يمكنك الوصول مرة أخرى إلى السلام! ألم تعرفي أن إنجاب الأطفال يعني إمكانية التعرض لأشد أنواع الألم؟ هل يجب أن أشرح لك أن الأبناء شيء مختلف عنا؟ ولكن على الأقل أنت أنجبت أبناء، بالنسبة إليَّ مر الوقت وعندما أشيخ لن يتذكر أحد أن يأتي ليزورني وسأبقى كالبلهاء وحدي أحدق في نار المدفأة.

جلست هناك أراقبها تبكي من الغضب، وأردت أن أجري إلى المنزل. ولكن عندما نهضتُ، وقفتْ بيني وبين الباب، وبرأس منخفض قالت: ـ اعذريني يا ترينا، لم أرغب في ذلك. ربما يجب عليك ألا تحدثيني بعد اليوم عن ابنتك، لأنني لا أجيد مواساتك.

الفصل السادس

في بداية عام ١٩٤٢ لم أعد أتلقى أي خطابات. بعض الليالي كنت أرى إيريش عائدًا معك. وصلتما بيدين متشابكتين من الطريق المؤدي إلى سويسرا.

كان يبدو لي أنني عشت هكذا طوال عمري. اصطحاب الماشية إلى المزرعة، حرث البستان، غزل الصوف، وفي كل شيء آخر كنت أترك القرار لمايكل الذي يجلب النقود إلى المنزل ويحب أن يُسمعني صوته الأجش. في واقع الأمر كان مسكينًا هو الآخر، محبوسًا في الورشة من الصباح حتى المساء مع أتربة الخشب التي تتسلل إلى رئتيه. في محفظته عثرت على صورة للفهرر.

مرة في الشهر تتقابل النساء اللاتي لهن زوج أو ابن في الجبهة. لأرضي أمي أرتدي سترتي وأجر قدمَي كالدب. في منزل هذه أو تلك لم نفعل شيئًا سوى الصلاة، أو كان لا بد أن أجلس لأقرأ وأعيد قراءة الخطابات التي يضعنها تحت أنفي، التي لم يكن مكتوبًا فيها أي شيء. أخرج من هناك مذهولة، وأتوق إلى العودة السريعة لأعتني بالحظيرة وأحلب الأبقار في سلام. بدأت أقنع نفسي بأنني من الأفضل أن أتخيل إيريش ميتًا، وهكذا سأفرح أكثر إذا عاد، معكِ أو من دونكِ.

بدأ المسن الذي كان يأتي ليأخذ أكوام الصوف في إرسال ابنه. كان صبيًّا طويل القامة ونحيفًا، وعظام كتفيه بارزة من كنزته. عيناه طيبتان ويناديني دائمًا باسمي. كان أصغر مني وعلى وجهه لا تزال تظهر بقع الشباب. مع مرور الوقت، بدأ يعتاد الدخول إلى المنزل، وفي كل مرة يحاول أن يطيل مدة الحوار حتى وإن لم يعرف قَطُّ ماذا يقول، في إحدى المرات عرضت عليه أمي مشروبًا ساخنًا وفي الوقت الذي ذهبت إلى المطبخ لتغلي المياه وضع يده على ركبتي وبكل جدية قال لي إنه يرغب في أن يعتني بي. أخذت أنظر إليه وأحدق في عينيه العذبتين.

ـ ماذا يعني أن تعتني بي؟

ـ أدفع لك أكثر في الصوف، الضعف أو ثلاثة أضعاف أو كما تريدين.

انفجرت بالضحك وقلت له إذا أراد أن يدفع لي أربعة أضعاف لن أعارض ذلك على الإطلاق، ويمكنه أن يفعل ذلك بداية من ذلك اليوم. استاء وأصبحت عيناه حالمتين. ظل ينظر إليَّ بفم مفتوح، وأنا لم أعرف إذا كان عليَّ أن أعتذر أم أن

أستمر في الضحك من حماقته. فجأة اقترب من مقعدي، ووضع من جديد يده على قدمي وقال إنه لا يعرف كيف يعبر عما في نفسه للنساء.

وعندما أخذت أمي الفناجين سألني: ـ هل تريدين مساعدة في تفريغ العلف؟

كان تفريغ العلف وتوزيعه على المذاود من الأعمال الكريهة بالنسبة إليَّ، وهكذا قلت له أجل. بمجرد أن دخل معي، أغلق الباب بالمزلاج. وبقرب من كومة القش أخذني من كتفَي وأخذ يقبلني في وجهي. بدا لي صغيرًا جدًّا ونحيفًا ليتمكن من أن يؤذيني لذلك تركته يقبِّلني، وأيضًا لمذاق فمه العذب وللشعور بأنفاس أخرى وجسد آخر غير جسد إيريش، شعرت بأن جسدي به رغبة محمومة في أن يستسلم. مددني على القش، وقبَّل عنقي، وضغط على ثديَي بيديه الخشنتين من البرد. في لحظة كان فوقي، وبينما يمارس الحب قال لي إنه يحبني وإنه يرغب في أن يعتني بي. وضعت يدي على فمه: أردت أن أشعر بدفء جسده، وبشهوته الشبابية الخالية من الهموم. أخذت أطراف القش تدخل في شعري وتقرصني في كنزتي التي ستحتفظ لأيام طويلة برائحته.

قلت له في النهاية:

ـ يجب ألا يحدث هذا مرة أخرى.

ـ حتى وإن لم يعد زوجك من الحرب؟

أجبته وأنا أعيد فتح الباب لأطرده خارجًا: ـ سيعود زوجي.

وحتى لا أدعه يدخل المنزل مرة أخرى كنت أقف أمام الباب وأنتظره وأنا أنظر إلى الطريق بوجه مكفهر، لا يشبهني. عندما يصل بعربته ذات المحرك، أشير إليه أن ينتظرني هناك، ولا داعي لنزولهما. عندما كان المسن يراني أسير منحنية تحت ثقل أكوام الصوف التي جمعتها في خيش وأحملها على كتفي، يضحك وهو يضرب ابنه بكوعه. تشعرني ابتسامته الخبيثة بالرغبة في حشو الصوف في فمه. ينظر الشاب إليَّ مرتبكًا. بعد بضعة أسابيع بدأ يحمل أكوام الصوف بسرعة وبغضب، ويضع النقود بين يدَي باحتقار، من دون حتى أن تتقابل أنظارنا. حتى أمي كانت تقول إنه من الأفضل ألا تُدخل أي رجل المنزل لأن نياتهم أثناء الحرب تصبح شريرة. كانت تردد بينما تغزل الصوف: «يتركوننا بمفردنا، وبعد ذلك يتضايقون إذا حدثت أشياء معينة. يجتمعون مثل الطيور الجارحة في انتظار أن تتعثري، وهكذا يمكنهم التعامل معك كعاهرة طوال حياتك».

عندما سمعتها تقول هذا ظللت بلا حراك كالمشلولة، ولم أفهم إذا كانت تتحدث بهذه الطريقة لأنها تعرف ماذا فعلتُ في مخزن العلف، أم أنها مجرد مخاوف لديها. من حين إلى آخر كانت تأتي آنّا، زوجة الحداد، لزيارتنا. امرأة طويلة القامة بجانبين مضمومين وذقن مدبب، عادة تأتي لتتعلم الحياكة، إلا أنها في صباح أحد الأيام ظهرت ومعها طفل صغير لم يكمل أعوامه العشرة.

قالت من دون أن تدخل:

ـ إنه أصغر أبنائي. في كل مرة يتحدث معه المدرس يجيبه بالألمانية، ومن كثرة ضربات العصا على يديه امتلأت بالتقرحات.

فتحتْ كفيه المحمرتين اللتين أغلقهما الطفل بقوة وكأنه يخبئ فيهما نقودًا مسروقة، وقالت لي: ـ علميه بعض الإيطالية، على الأقل الضروري لكيلا يتلقى المزيد من الضربات بالعصا. أخشى أن يقدم زوجي في القريب العاجل على شيء سيندم عليه.

قلت لها:

ـ لا أستطيع أن أُدرس مجانًا.

أومأت:

ـ لا يمكنني أن أعطيك نقودًا، ولكن سأحضر لك السلامي، بعض البيض أو أي شيء يمكنني الحصول عليه.

ظهرت أمي على الباب، ووضعت بين يدي الطفل خبزًا بالسكر، التهمه على الفور، وقالت منهية الحوار: ـ أعطونا ما تستطيعون، لا تقلقي.

ثم أدخلتها.

نظرتُ إليها مصدومة. لا يهم إذا كنت طفلة أم امرأة، ستعاملني أمي بالطريقة نفسها، بحسم وتسلط. ستظهر دائمًا خلفي لتخرجني من أي مأزق. ليس لأنها تحب أن تفعل هذا، ولكن لأنني لا يمكن أن أسمح لنفسي ببعض التردد. كانت تغيظني في بعض المرات: «إذا أردت أن تترددي في قراراتك، ما كان عليك الزواج من فلاح!».

لم أحب كثيرًا تدريس الإيطالية، ولكن المكوث بضع ساعات إلى الطاولة مع طفل مدلل لا رغبة له، يشرد باستمرار ويحرك قدميه وكأن حذاءه مشتعل بالنار، جعلني أشعر أخيرًا بأنني مفيدة لشخص ما.

في أحد الأيام حاولت أن أساعده على حفظ قصيدة شعر، وفكرت، إذا لم يكونوا قد أجبروني على كرهها، بأن اللغة الإيطالية في الحقيقة لغة جميلة. عند قراءتها تبدو كالغناء. إذا لم أربطها آليًّا بهؤلاء الفاشيين المتغطرسين لكنت استمررت في ترديد الأغاني التي كنت أسمعها في جرامافون باربارا: سأعطيك قبلة

إذا عدت إلى هنا

ولكنني لن أُقبلك

إذا ذهبت إلى الحرب

وربما كانت مايا أيضًا ستفعل ذلك والفلاحون، وكان ذلك الوادي، بمرور الوقت، سيصبح نقطة تلاقٍ للناس التي تجيد التفاهم بأكثر من طريقة، وليس منطقة غير محددة من أوروبا حيث ينظر كل منا إلى الآخر في عبوس. إلا أن الإيطالية والألمانية كانتا كالأسوار التي استمرت في الارتفاع. أصبحت اللغات علامة على الجنسية. حوَّلها الديكتاتوريون إلى أسلحة وإشعارات حرب.

الفصل السابع

توقفت سيارة دفع رباعي ملك للجيش أمام المزرعة. ساعده عسكريان على النزول. كانت إحدى قدميه مجبسة وفي يديه عكازان لمساعدته على السير. بعد بضع خطوات رفعاه من تحت ذراعيه وتركاه عند العتبة. سارع إيريش بأن يقول لي إنه ليس عاجزًا، وإنه مُصاب فقط في قدمه وبعد الشفاء سيعاود الرحيل على الفور للجبهة. وأومأ العسكريان مؤيدين.

عندما اتخذت السيارة الطريق مرة أخرى، سألني إيريش عنكِ، وعندما رآني أهز رأسي نافية سارع بتغيير الموضوع. قال: ـ ليس صحيحًا أنني سأعاود الحرب يا ترينا، لن أحارب مرة أخرى أبدًا. إذا جاءوا للبحث عني مرة أخرى سأهرب إلى الجبل.

وحاول بصعوبة أن ينهض لأنه أراد أن يرى المنزل من جديد. كان وجهه ضامرًا وعلى جبهته تجعيدة عميقة وكأنها قطع. لم أتوقف قَطُّ عن النظر إليه، مرَّرت يدي في شعره، أصبح أخف ولونه أشقر يغلبه الأبيض. ولكنه يتصرف بطريقته المعتادة. أصابعه التي تتحرك بعصبية ويدق بها على الطاولة، ذلك الجوع الصبياني الذي يجعله يلتهم أربع قطع من الجبن في بضع قضمات. بدأت أمي تطهو على الفور ومن دون أن تقول أي شيء خرجت لتبتاع دجاجة. عند عودتها وجدت إيريش نائمًا على المقعد، وذقنه متدلٍّ على صدره. وصل مايكل جريًا، لا بد أن أحدهم قد أخبره. وقف يراقبه أثناء نومه، ولكنه في الوقت نفسه أخذ يبتسم وهو يومئ برأسه. بدا وكأنه الأب وإيريش ابنه. ثم ذهب مايكل ليغتسل في حوض الاستحمام. صفف شعره أمام المرآة وأراد أن يرتدي كنزته السوداء، تلك الخاصة بالأعياد. أنا أيضًا اغتسلت وصففت شعري المجعد، ورفعته بالعود الخشبي. جهزت أمي المائدة ووضعت عليها المفرش الأبيض القطني. صرفنا من حضر إلى مزرعتنا من الجيران الوافدين رغبة في رؤية الجندي العائد من الحرب.

نرجوهم، ونحن نسد الباب أمامهم:

ـ غدًا، غدًا!

أكل كل شيء منكفئًا، داعمًا رأسه بيده. أخذ يطلب مني باستمرار أن أصب له النبيذ ولم أرَه قَطُّ مقبلًا على الشراب بهذه الطريقة. لم يتوقف مايكل دقيقة واحدة عن طرح الأسئلة، وكان إيريش يرد عليه بجفاء، فهو يرغب في أن

يتناول طعامه في سلام، والحديث عن الحرب يسد له شهيته. أثناء مضغه الطعام يمتعض بوجهه، وفهمت أنه يشرب ليخفف ألم قدمه.

عندما نزل إلى الحظيرة، وجد الماشية في حالة سيئة. قال إن إحدى البقرات مصابة في عينيها، والغنم تعاني سوء تغذية.

تمتم وهو يربت على خطم تلك البقرة:

ـ لا أريد أن أحارب مرة أخرى يا ترينا. لا أريد ذلك على الإطلاق.

في الفراش أراني جرح قدمه حيث أخرجوا رصاصة. بقينا حتى وقت متأخر نتحدث. تحدثنا وكأن أحدنا لم يعرف الآخر قَطُّ. في تلك الليلة لم أفكر فيكِ ولو للحظة.

بمجرد أن خفَّت حدة الألم، أول شيء فعله هو أنه ذهب إلى موقع بناء السد سيرًا.

قلت له:

ـ هل جننت؟ هل تريد أن تذهب حتى هناك؟

أمرني:

ـ اعتني أنت اليوم بالماشية، ومن الغد سأتولى أنا الأمر.

ابتعد وهو يعرج. كان يبدو كرقَّاص الساعة، وتألمت من أجله. لحق به مايكل وعثر عليه وهو ينظر بذهول إلى الخنادق التي تصب فيها الشاحنات الأتربة. ويداه تمسكان كالخطاف بالسلك الحديدي للأسوار. كانت عروقه تخرج من عظامه وتزرق جلده. ظل مايكل بجواره ووقف معه يراقب العمال، والحفارات الغاضبة، والعساكر الذين يدخنون مستندين إلى أغطية محركات سيارات «الجيب».

ـ تعالَ يا بابا، لنرحل من هنا.

وبينما يبدل مايكل الدراجة، يمسك إيريش بساعديه، وهو ينظر إلى أشجار «التنوب» التي تغطي الجبال ويستنشق عطر السماء.

عندما وصلا إلى الحانة قال لمايكل:

ـ إذا استدعوني مرة أخرى، سأهرب إلى الجبل.

ـ لا أريد أن أحارب مع الإيطاليين أيضًا يا بابا.

قال لافظًا كلماته بغضب:

ـ لا مع الإيطاليين ولا مع الألمان. لا أريد أن أذهب إلى أي حرب مرة ثانية.

قال مايكل:

ـ ولكن الحرب إلى جانب «الفهرر» تعجبني.

ـ لقد أصبح الألمان عنصريين ودمويين.

ـ إذا كان «الفهرر» يفعل ما يفعله الآن فلديه أسبابه.

هاجمه إيريش:

ـ وما هي الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى الإبادة الجماعية؟ ما سبب هذه الحرب المستمرة منذ أعوام؟ وما دخلنا نحن؟

ـ تحت قيادته سيولد عالم أفضل يا أبي.

ـ عالم من العبيد الذين يخطون بخوف، إليك ما سيولد!

استمر مايكل ولم يتزعزع:

ـ لن يبني النازيون السد، ألا يسعدك هذا؟

عندئذٍ صرخ إيريش من جديد، بقوة شديدة إلى حد أن المسنين الجالسين إلى الموائد المجاورة في الحانة التفتوا لينظروا إليه.

ـ لا يكفيني ألا يغرقونا لأوافق على ما يفعلونه.

وحاول أن ينهض بصعوبة. حاول مايكل أن يسنده ولكنه أبعد ذراعه وأمسكه من كنزته وجذبه نحوه.

ـ أنت لا تفقه شيئًا. لست سوى فتوة.

ثم قال له باشمئزاز:

ـ اذهب إلى هتلر حبيبك، أيها الأحمق.

لم يتحدثا لأيام. في المساء، كانا يحاولان أن يلتزما أمامي باحترام مصطنع يجعلهما يبدوان أكثر كراهية. بعد أن أضع الطعام على المائدة أجلس مكان إيريش، بينهما هما الاثنين، وبينما أبتلع حسائي أتساءل ما فائدة كل هذا التعب في تنشئة الأبناء.

في بعض الأمسيات عندما يخرج مايكل ألوم إيريش، أقول له أن يدعه وشأنه، ففي نهاية الأمر كان يكد في العمل ويترك لنا كل ما يربحه من نقود، بلا أي تردد.

ـ بهتلر أم لا، مايكل شاب مجتهد. لا بد أن تكون أقل قسوة معه.

وأذكره بالوقت الطويل الذي قضاه مايكل أمامه وهو يراقبه أثناء نومه بعد أن أعاده الجنديان الإيطاليان من الجبهة.

وكنت أسأله في غضب:

ـ ألا تكفيك مودته؟

ولكن عندما كنت أقول له هذا، يهاجمني إيريش، يصرخ بأن أسوأ شيء يمكن أن يحدث له هو أن يصبح ابنه نازيًّا. واقع أن الناس لا تفهم هذا، وواقع أن الجميع أصبحوا مثله، لا يُغير ذرة في الموقف. فالنازية هي أبشع عار، وإن عاجلًا أم آجلًا سيُدرك العالم هذا.

حتى وإن لم يتوقف هدير الطائرات التي تصل من خلف السماء قَطُّ، عادت الحرب لتبدو لي غير حقيقية، وإيريش بجواري. لم يعد لديَّ الوقت لأفكر فيها. أتذكرها فقط عندما يصل إلى البلدة برقية بوفاة أحدهم. عندئذٍ كنت أسمع النحيب القادم من المزارع الأخرى وأرى الناس ترتدي السواد وهي تتقدم في موكب أمام الباب، من دون أن تعرف ماذا تقول، وخاصة إذا كان الميت صبيًّا. في تلك الأيام تدق الأجراس لساعات طويلة، ولم يعد إيريش الآن يغيب عن أي قداس.

استعاد من جديد حياته كفلاح، وكرَّس نفسه لكي يعيد إلى الماشية عافيتها. يأخذها إلى مراعٍ جديدة حيث يمكنها أن تأكل ملء بطونها. يعود مبكرًا وفي

منتصف الظهيرة تكون الحيوانات بالفعل في الحظيرة. الآن لم تعد تتزاحم بالداخل لأن عددها قل، فقد تخلص من البعض الآخر حيث لم تكن لدينا نقود لعلاجها كلها. أخذ فيها مبالغ جيدة لأن العثور على اللحم صعب، ورأى أننا الآن يمكننا بيع بعض البقرات المسنة والعمل على أن تحبل البقرات الشابة ثم نربي عجولها.

بعد العمل يخرج وسيجارته على جانب فمه. أحيانًا ينادي جراو، وعلى الباب يقول لي: ـ تعالي معي.

أجيبه:

ـ انتظر لأجهز نفسي.

ـ لا، اخرجي كما أنتِ.

عندئذٍ نتشاجر لأنني لم أعد أريد الخروج كغجرية، لم أعد أرغب في أن أبدو مهمَلة، الآن وقد عاد زوجي من الحرب. عندئذٍ أجهز نفسي بسرعة، ولكن عندما أظهر بشعري المصفف والفستان ذي المربعات، يكون هو بالفعل قد خرج، وأقف أنا متسمرة أنظر إلى نفسي في المرآة وأرى نفسي عجوزًا.

في طرقات كورون، كان إيريش يقول لكل من يقابله: «لا بد أن نُدمر موقع البناء قبل أن تغمرنا المياه».

ولكن يجيب المسنون بأنهم تقدموا في السن ليفعلوا تلك الأشياء، والرجال القليلون الذين لم يذهبوا إلى الجبهة يقولون إنه لن يحدث شيء، فسرعان ما سيحتل هتلر منطقة تيرولو ولن يتحدث بعدها أحد عن السد. بل إن بعضهم يهدده قائلًا: «احتفظ بلسانك بين أسنانك إذا لم تكن ترغب في أن يأتي ذوو القمصان السوداء ليوسعوك ضربًا أثناء نومك».

عندئذٍ يذهب إيريش إلى النساء. ولكن النساء أيضًا يهززن رؤوسهن ويُجبنه بأن أزواجهن أو أبناءهن على الجبهة في مكان ما في العالم، ولا أحد يدري إذا كانوا أحياءً أم أمواتًا تحت طلقات المدافع الرشاشة. ولا توجد مساحة في أذهانهن للتفكير في السد الواقع في نهاية النهر، حيث لا تصل إليه أبصارهن. «لن يسمح الله بشيء من هذا القبيل»، «إن كورون هي مقر الأسقف»، «ستحمينا القديسة آنّا».

كان إيريش يجيبني بأن أغلق فمي عندما أقول له إن الله هو رجاء من لا يرغبون في أن يحركوا إصبعًا.

الفصل الثامن

سقط كثيرون قتلى في أوروبا الشرقية وآخرون في روسيا، على ضفتَي نهر الدون. أتوا ليسلموا البرقيات كلها في اليوم نفسه، وتركها الضابط في أيدي النساء وهو ينظر إلى حذائه العسكري الطويل الضخم ويلمس مقدمة خوذته قبل أن يركب دراجته الآلية. دق الكاهن الناقوس حزنًا حتى المساء. فرغت الحانة وقال إيريش إن الأجساد لن تعود أبدًا، ولا بد من أن نطلب من «البوديستا» أن يصنع شاهد قبر جماعي.

توافد باستمرار المزيد من العساكر الألمان، وقالوا إن جنوب تيرولو سيصبح عن قريب أحد أقاليم «الرايخ». البعض احتفى بهذا والبعض الآخر تجنبهم تمامًا.

استطاع كارل أن يشتري مذياعًا. كان الرجال يجتمعون ليستمعوا إليه، ويشكو هو أنه لم يعد أحد يطلب أي مشروبات وأنه قريبًا سيحطمه بالمطرقة. حتى إيريش يذهب إلى الحانة ليستمع إليه، وكان ينقل لي أن «الدوتشي» أصبح يطلق تصريحات انتصارية أكثر، وهو ما يشير إلى أن الأمور تزداد سوءًا.

في إحدى الأمسيات قال له مايكل:

ـ بابا، سيأتي هتلر قريبًا ليحررنا.

نحى إيريش صحنه بعيدًا، ونظر مباشرة إلى مايكل وأجابه: ـ إذا انضممت إلى صفوف الألمان لا تضع قدمك مرة أخرى في هذا المنزل.

عندما وصل خبر الهدنة، نزل الناس إلى الشوارع للاحتفال. عند وصول جنود «الفهرر» كانت النساء يطللن ممسكات بمناديلهن من النوافذ ويلوحن من العتبات. تعاملن مع أولئك الرجال الذين لم نرهم قَطُّ وكأنهم المحررون. أصبحنا المنطقة الجنوبية للرايخ. منطقة العمليات ما قبل منطقة الألب. قال البعض إننا ما زلنا تحت حكم الفاشية، والبعض الآخر قال لم تعد لهم أهمية. في الأسابيع التالية طُرد الموظفون الإيطاليون، ولكن من دون أن تُمس شعرة من رؤوسهم. ظهرت إعلانات لإعادة تعيين السكان المحليين، ومُنعت الإيطالية من كل المكاتب الحكومية. كل من لديه مؤهلات أو شغل وظائف نزعها عنه موسوليني، كان مدعوًّا للتقدم من أجل استعادتها.

لم يعد إيريش يخرج من المنزل منذ وصل النازيون. يسير ويداه خلف ظهره، وإذا سألته: «والآن ماذا سنفعل؟»، لم يكن يجيبني. ولا حتى عندما أتى مايكل

ليقول له إن الأعمال في السد قد توقفت ـ فـ«الفهرر» يرغب في بناء سكك حديدية ـ ولا حتى آنذاك فتح إيريش فمه.

فقط عندما سيطر الألمان بالكامل على الأرض وأصبح واضحًا للجميع أن موسوليني، سجينًا كان أم حرًّا، لم يعد يساوي شيئًا، وفقط عندما أعلنت الأوامر التي تصل عن طريق الإرساليات من مراكز قيادة ميرانو بحروف من نار التجنيد الإجباري للرجال، فقط عندئذٍ فهمت ماذا كان يوتر إيريش. هو الذي رأى بعينيه على الجبهة كيف يقتل النازيون ويسجنون، ويعرف أنه نظرًا إلى قراره في أزمنة الاختيار العظيم بأن يبقى في كورون وألا يرحل إلى ألمانيا بأن ذلك خطأ سيدفع ثمنه. فالألمان سيتخذون هدفًا أوليًّا كل من لم يرغب في الرحيل عام ١٩٣٩. مايكل أيضًا كان يقول هذا: «لا بد لنا وأن نتجند كمتطوعين، لا بد لنا وأن نُصلح خطأنا».

في إحدى الأمسيات أخذ إيريش جانبًا، وبصوت هادئ قال له: ـ اسمع يا بابا، هتلر يعرف قصتنا، يعرف ما مررنا به. سيجندنا، هذا صحيح، ولكن ليس لكي يرسلنا إلى جبهة ما بعيدة. سيرسلنا إلى مكان قريب هنا أو سيعطينا مهمات إدارية. الذي لن يتطوع على الفور هو من سيرسلونه ليحارب في أوروبا.

أنهى حديثه محاولًا أن يمسك بيده.

سأله إيريش باشمئزاز:

ـ وأنت ماذا تعرف عن هذا؟

ـ لقد تطوعت بالأمس.

رفع إيريش رأسه فجأة، وثبت مايكل نظرته.

ـ لفد فعلت ذلك من أجلك يا بابا.

وأخيرًا في إحدى الليالي التي لم نستطع فيها النوم، قص عليَّ إيريش ما حدث على الجبهة: ـ سرنا لأيام من دون أن نتوقف. رأيت جبال ألبانيا، منخفضة ويابسة، ولكنها حادة ومليئة بالشقوق. تسلقنا ليالي كاملة مدقات البغال ولم نستطع حتى أن نسأل إذا كان الطريق ما زال طويلًا. أطلقت النيران، ولا أعرف كم رجلًا قتلت. لم أقتل أكثر من الآخرين، ولكنه عدد كافٍ ليدخلني إلى الجحيم. كوني ما زلت على قيد الحياة، في حد ذاته، ظلم. كان الضباط في أحيان كثيرة يسيئون معاملتنا نحن التيروليين، يجبروننا على أن ننظف

أحذيتهم، ولم ينادِنا أحد قَطّ بأسمائنا. عندما نقلونا إلى اليونان، عثرت على صديق، شخص من مدينة روفيريتو الذي بمجرد وصولنا أُصيب بداء الخُنَاق. قبل التفتيش كنت أدهن وجهه ببعض قطرات الدماء. أثقب إصبعي وأدهن الدم على وجهه لأخفي بثراته. منحته الحياة لبضعة أيام. ثم في إحدى الأمسيات جعلوني أدخن معه، ثم قتلوه أمام عيني. وبعدها بدقيقتين كان عليَّ أن آكل حصتي من الطعام.

كتمت أنفاسي، وذقني مستند إلى ركبتَي المضمومتين بين ذراعَي، وأنا أنظر إلى نور القمر المتسلل من النافذة.

ـ إن الألمان أكثر وحشية من الإيطاليين. إنهم يَنفون، يعذِّبون.

وعندما التفت نحوه كرر:

ـ ترينا، إذا كان لديهم أي نية لتجنيدي ثانية، سأهرب إلى الجبال.

ـ عندئذٍ سنهرب معًا.

بعدها ببعضة أيام ظهر مايكل بزيه العسكري. أتى ليحضننا، وكان يبتسم سعيدًا، وكأنه بتلك الملابس التي يرتديها قد أصبح رجلًا أخيرًا.

قال بسرور:

ـ قريبًا سأصبح ملازمًا أو قائدًا للـ«فيرماخت»(3) يا ماما، سيصبح لديَّ راتب جيد، ونجوم على الزي.

أومأتُ من دون أن أنظر إليه بينما أعدل له ياقة المعطف. سألني وهو يمسك بذقني أمامه: ـ حتى أنتِ لست مسرورة مني؟

ـ لا تفكر في ذلك، أنا لا أشعر أبدًا بالسرور.

ـ ولكن هذا الزي جميل، أليس كذلك؟

ـ أجل، جميل جدًّا.

قال إنهم عينوه في فرقة في وادي بادانا. مهمة ضد قوات المقاومة المنتشرة في شمال إيطاليا.

على الباب أمسكته بقوة من كتفيه وقلت له: ـ الآن سأطلب منك شيئًا وعليك أن توافقني.

نظر إليَّ مرتبكًا ولم يقُل لي أجل. كان لا بد أن أكرر عليه طلبي ثلاث مرات. عندئذٍ فقط أومأ موافقًا وبإشارة دعاني لأن أتكلم.

ـ لا بد أن تساعدنا على أن نهرب.

ابيضَّ وجهه. ثم أغلق قبضتيه.

قلت له:

ـ إنه سِرُّنا.

لم يُجِبني.

ـ كرِّر ورائي: «إنه سِرُّنا».

كررها ورائي.

أكملت بشيء من التحدي:

ـ إذا كان «الفهرر» يهمك أكثر يمكن أن تصبح جاسوسه وتقدمنا لنُقتل رميًا بالرصاص. يمكنك أن تنتقم من جدتك أو تمارس العنف على أبيك.

ـ هل طلب منك هو ذلك؟

ـ لا، لا يعرف شيئًا عن هذا.

ضاقت عيناه واحمر وجهه. نظر إليَّ وكأنني عدوته، ولكن في تلك اللحظة لم تكن تهمني مشاعره الطيبة. كنت أرغب فقط في حماية إيريش والهروب معه.

ـ سآتي لأخبرك أي الأماكن أكثر أمانًا.

قال هذا بصوت ليس صوته، ورحل من دون أن يقبِّلني. دخل إلى غرفة أمي وقبَّلها. ثم تسلل من أمامي بمعطفه الرمادي وأغلق الباب بعنف. انطفأت الشمعة الموضوعة على الصوان.

أخرجت حقيبتين. وضعت داخلهما ملابس إيريش الثقيلة، والكنزات المصنوعة من الصوف الخشن، وقطعة من الصابون، والوشاحات والجوارب والغطاء. وفي المساحة الصغيرة المتبقية دسست مكعب «البولينتا»، وبرطمانات اللحم المُملح، وخبزًا وكعكًا مجففًا. وفي حقيبتي سأضع قارورة ماء، وفي حقيبة إيريش قنينة «جرابًّا». جهزت كل شيء من دون أن أفكر، وكأن فجأة بدا لي جليًّا بأننا ليس لدينا بديل آخر. خبأت الحقيبتين داخل الصندوق الكبير ووضعت فوقهما أسمالًا قديمة.

ذهبت إلى حجرة أمي. هززت كتفيها، ثم جلست بجوارها.

سألتني:

ـ هل أنت بخير؟

ـ أجل أنا بخير.

ـ سيعود مايكل سريعًا.

ـ اسمعي يا أمي، أنا وإيريش سنهرب إلى الجبال. يمكنك أن تأتي معنا إذا أردتِ، ولكن من الأفضل أن تذهبي إلى بابي.

ـ إذا تجند زوجك يمكنك أن تبدئي التدريس.

ـ لا يهمني أن أعمل مُدرسة في مدرسة نازية، ثم إن إيريش لن يتجند.

ـ إنهم يقتلون زوجات الهاربين من التجنيد.

ـ سيقتلونك أنتِ أيضًا إذا بقيتِ هنا. لا بد أن تذهبي لبابي.

طلبتْ مني أن أخرج من الحجرة، ثم نادتني في المساء ومن دون أن تنظر إليَّ قالت: ـ حسنًا، سأذهب إلى بابي.

سخنتُ الماء في حوض الاستحمام. عندما عاد إيريش ساعدته على أن يغتسل ووضعت العشاء على المائدة. حاولت ألا تتلاقى نظراتنا. أرادت أمي أن تلازم حجرتها فأخذت لها صحنًا من الحساء.

ـ لقد أعددت الحقائب ووضعتها في الصندوق.

رفع رأسه عن الصحن وأومأ.

ـ هل رحل مايكل؟

قلت له:

ـ أجل.

وعبَّر عن استيائه بتعبير من وجهه، ثم استمر في المضغ بلا رغبة. وفي تلك اللحظة سيطرت عليَّ رغبة جديدة لم أشعر بها من قبل. كنت أريد أن أتخلص من كل ما لديَّ، من ممتلكاتي والحيوانات والأفكار. كنت أريد فقط أن أربط حزامي وأرحل. أن أذهب بعيدًا عن هنا.

كتبت خطابًا لبابي، رجوته فيه أن يأتي في أقرب فرصة ليأخذ أمي معه. لم أفكر في مايكل الذي ربما لن أراه مرة أخرى. لم أفكر في الحرب ولا في الجبال التي ستخبئنا أو التي عليها سنموت. لم أفكر فيكِ. لمدة أربعة أعوام، كنت أكتب لك، كل مساء، في دفتر قديم. أعدت قراءته مرة أخرى بسرعة، ثم ألقيت به في نار المدفأة. أخذت الجمرات القرمزية تصنع عروقًا في الرماد، وتسللت النيران بين الصفحات وهي تتأجج وتنبض بالحياة. ولم أشعر من قبل بأنني حرة إلى هذا الحد.

الفصل التاسع

في صباح أحد الأيام أتوا ليسألوني لماذا لا أعود إلى التدريس. سألوني إذا كنت أعارض المدرسة النازية.

قلت: «بالطبع لا».

بمجرد أن تخلصت من أولئك الرجال، توقفت سيارة أمام المزرعة. سأل ضابطان عن إيريش هاوزر. كنت قد تركت الباب مفتوحًا ومن الباب المفتوح تدخل الشمس. كانت أزرار كنزتي مفتوحة، وأخذ أحدهما ينظر إلى قميصي نازلًا بنظرته حتى باطن ساقي.

ـ سأرسله إلى القيادة، الآن هو في الخارج مع الحيوانات.

ـ لماذا لم يتجند طواعية؟

أجبت:

ـ فعل ذلك من أجلي، فأنا مريضة. قررنا أن يتجند ابننا وأن يبقى زوجي هنا. لقد حارب بالفعل لمدة عامين وعاد مصابًا من اليونان.

تأكدا من قائمة ما أن مايكل قد تطوع فعلًا. عندما عثرا على اسمه بدآ في استخدام أسلوب مهذب.

ذهب إيريش إلى الحظيرة ليذبح العجل. قتله بمسدس أحضره معه من الجبهة، سلخه وعلق اللحم لينزف. أخذت البقرات تركل وتخور بصوت يصم الآذان. بقيتُ مرتعبة طوال اليوم. أحضر إيريش اللحم إلى المنزل، وقطعته أنا إلى شرائح. وضعته في حاويات زجاجية. شريحة من اللحم وحفنة من الملح. فعلت هذا إلى آخر قطعة لحم، وإلى آخر حفنة ملح. ترك البقرات الثلاث في مزرعة صديقه فلوريان، والغنم عند فلاح آخر اسمه لودفيج. طلب منهما، بعذر ما، أن يحتفظا بها. في الغد سيفهمان السبب. عندما عاد في المساء وضعت اللحم لأحمره في الزبدة، وسكبت الدهن على «البولينتا» وأكلنا حتى الغثيان. في الخارج تظهر مجموعات النجوم التي بالنظر إليها أشرد بأفكاري بأن لا شيء مما يحدث حقيقيًّا. لم يكن الهروب إلى الجبال حقيقيًّا ولا حقيقيًّا ذهاب أمي لسوندريو لدى بابي. ولم يكن حقيقيًّا أن ابني كان نازيًّا.

قلت:

ـ أخشى أن ينتقموا من مايكل.

ـ أنا أخشى أن يرسل مايكل النازيين للبحث عنا.

ـ توقف عن تلك الأقوال الخبيثة. لن يفعل هذا.

ـ وهم لن يفعلوا له شيئًا سوى طرح بعض الأسئلة.

أزحت الصحون من على المائدة، وغسلتها في الحوض ونظفت الصوان والأثاث وفي النهاية نظفت الأرضية.

سألني إيريش:

ـ لماذا تتعبين نفسك هكذا؟ سيحطمون المزرعة تمامًا، ربما يحرقونها أيضًا. لا داعي لتنظيفها.

ـ ولكنني سأتركها نظيفة.

ضم إيريش كتفيه، ثم وضع الأشياء الأخرى في الحقيبتين، وأعد كيسين من القش لننام فيهما. وكنت أنا أتنقل من حجرة إلى أخرى لأتأكد أن كل شيء منظم. كنت بحاجة إلى أن أصدق أننا سنعود، وستعود أمي أيضًا وستغزل من جديد وهي تضع الإبر تحت إبطيها. سيعود الجميع، بابي وزوجته إيرينه، والشباب الذين جندهم النازيون، ومايكل سيتصالح على الفور مع إيريش. وستعودين أنتِ أيضًا. ستنتهي الحرب وسيعيدونك في النهاية إلى كورون.

خرجنا في قلب الليل. ألقيت نظرة على المطبخ وعلى مائدة الطعام. طويت المناشف ورتبتها الواحدة فوق الأخرى، وكانت الأكواب ما زالت ترشح من المياه، رائحة الذبيحة تملأ المكان.

كان القمر هلالًا على قمم الأورتليس. نزعت سلسلة جراو، الذي رفع رأسه من على رجليه، ونظر إليَّ بعينيه المكرمشتين. ربتُّ على خطمه وذيله.

دعك إيريش أذنيه، وقال:

ـ نراك عن قريب يا جراو.

ثم أمسك بيدي ورحلنا. لم أستطع تذكر المرة الأخيرة التي فيها أمسك بيدي. شعرت بأنني ناعمة وخفيفة.

أخذنا نسير نحو أشجار «اللاركس»، في الغابة تكثف الظلام فجأة وأصبح البرد قارسًا. أضاء إيريش الشعلة وتوقف لينظر إلى وجهي الذي أضاءه النور. كان فمانا يخرجان ضبابًا.

سألني:

ـ هل تشعرين بالخوف؟

أجبته:

ـ لا.

كنت أرغب في أن أقبِّله، هناك، في وسط الغابة.

ـ من الأفضل أن نصعد الآن وسط الظلام، أن نصعد إلى أعلى بقعة ممكنة ونذهب في اتجاه سويسرا. هناك توجد مغارات ومخازن تبن، وفي الأعلى أكثر سنعثر على اللاجئين. لا بد أن نصل أعلى من الألمان الذين يراقبون الحدود، ونتوقف قبل أن نتقابل مع البوليس السويسري.

عندما أصبح الصعود حادًّا، التزمنا الصمت. كان لا بد من الإصغاء إلى الأصوات. كان إيريش يمسك في يده بمسدس ويعلق على رقبته بندقية الصيد. استمر حفيف الأغصان ولم أكن أفكر في الجنود ولكن في الثعابين والسحالي التي تزحف على الأوراق، وفي الذئاب التي تخاف الضجيج ومن البوم ذات العيون الصفراء. رفعت وشاح أمي ليغطي أنفي، ثم غطيت أذنَي، ثم رأسي.

إذا تعثرت أو كانت الأرض تحتي قاسية كان إيريش يعطيني الشعلة وعلى الفور كان يزجرني لأنني كنت أنير وجهه. توقفنا للحظة لنسمع صوت تيار مائي. ملأنا قارورتنا. كانت المياه مثلجة وقلت له أن يشرب ببطء. كنت أود التحدث ولكن لم يكن إيريش يصغى. كان الصمت ثقيلًا، مثل ذلك الذي لا بد أنه يقبع الآن في منزلنا الخالي.

ـ غطي أذنيك، من هنا يمكننا العثور على ذئاب.

ـ إيريش، متى سيحل النهار؟

ـ بعد قليل.

الفصل العاشر

اخترق ضوء، في البداية وردي اللون، ثم أزرق، السماء كالحة السواد. أشرقت الشمس، وأشار إيريش ليطلعني على كورون، التي تبدو صغيرة جدًّا أسفلنا. أكلنا الرقائق والجبن ونحن نجلس على الصخور. جعلني أتجرع رشفة «جرابًّا» وشربتها وأنا أسعل. الآن ينير ضوء واضح السهل، ومن المنحدرات برزت أغصان وشجيرات. بدا لي أنني تسلقت العالم، وأنني خرجت منه ولم أعد أنتمي إليه.

قال إيريش:

ـ يمكننا أن نبقى هنا.

كانت هناك مغارة ضيقة في ضلع الجبل، ولندخلها علينا أن نزحف على أربع. فحصها إيريش وقال إنها ليست جحر حيوان. أخذنا نجمع الأغصان ونسحق بأقدامنا آثار الثلج.

سألته مرتبكة:

ـ هل يجب أن نعيش معسكرين هنا في الداخل؟

ـ فقط لبضعة أيام، ثم سنذهب إلى مزرعة حيث يمكن استضافتنا.

ـ ومن سيستضيفنا؟

قال وهو يمرر لي البطاقة التي يحتفظ بها في جيبه: ـ الأب ألفريد ترك لي بطاقة سنقدمها لصاحبة المزرعة. ابنها قس شاب من ماليس.

سألته وأنا أنظر حولي:

ـ هل سننام على الأرض؟

أجابني بصبر:

ـ لنذهب ونجمع بعض أوراق الأشجار، ثم سنحشو مراتبنا. أكياس النوم ستساعدنا على ألا نشعر بالبرد الشديد.

طالبته بألا يبتعد ولو حتى مترًا. هددته بأنني سأبدأ بالصراخ أو سأنزل إلى الأسفل في الوادي. لم أرغب، لأي سبب كان، أن أبقى بمفردي. عندئذٍ ربت إيريش على رأسي وشرح لي أنه سيضطر عن قريب أن يذهب ليصطاد أرنبًا أو بعض الطيور أو أن يطلب من الفلاحين أن يبيعوا له الجبن. لم يكن هناك أي معنى لأن نذهب معًا. ترك لي المسدس، واحتفظ هو بالبندقية. لم أكن قد أطلقت النار قَطُّ، ولا حتى حاولت لأنه لم يكن في خزانة المسدس سوى ست طلقات.

قال لي:

ـ يكفي أن تمسكيه بكل قوتك عندما تضغطين الزناد.

أخذت أحدق في حديد المسدس، وشعرت بأنه ثقيل بين يدَي الباردتين. ذهبنا لنجمع الأوراق، ثم فتشنا المنطقة. لم يكن فيها أي نفس، وعندما عدنا، كرر إيريش مقتنعًا: ـ لن يصلوا إلى هنا على هذا الارتفاع.

ـ ولكن سيهبط المزيد من الثلج.

ـ أجل، سيهبط الكثير من الثلج.

ـ وماذا سنفعل عندما يهبط المزيد من الثلج؟

ـ لا بد أن نقاوم فقط لبضعة أيام يا ترينا، لنتأكد أن الألمان لا يعبرون الطريق. ثم سنبقى في تلك المزرعة، سندفع ثمن الاستضافة بأن نعمل، وسنترك لهم النقود التي لدينا.

ـ وفي ذلك الوقت ستنتهي الحرب؟

ـ أتمنى هذا.

عند حلول شمس الظهيرة خلعنا وشاحينا وأكلنا قطعة جبن أخرى. استراح هو أولًا، وخرجت أنا بالمسدس خارج المغارة لأنظر إلى الضوء الساطع للسماء، وإلى السحب الطويلة والرفيعة المتلاحقة في ذلك الأزرق الصافي. رأيت نسرًا يحلق من بعيد. أخذت أفحص الأشجار، وركلت بعض الحصى، وكان الهواء ساكنًا.

قال إيريش:

ـ إذا رأيتِ خدوشًا في سيقان الأشجار، ابتعدي لأن هذا يعني أن هناك ذئبًا قريبًا.

سألته منفعلة:

ـ ماذا لو رأيته أمامي؟

ـ لا بد أن تطلقي النار على عينيه. والأمر نفسه يجب أن تفعليه مع الألمان، ومع الإيطاليين أيضًا. إذا أردت أن تبقي على قيد الحياة لا بد أن تصوبي دائمًا على العينين.

قلت لإيريش في المساء ونحن نجلس أمام النار: ـ هنا في الأعلى لسنا خارج الحرب. إن هذا المسدس هو الحرب.

وافقني:

ـ ولكننا لم نشترك معهم.

عندما يتكثف الظلام على الجبال أمكث لأراقب السماء في محاولة للإمساك بالضوء، وكأن ذلك المتبقي هو الحليب الذي لا بد من رضاعته وأنا طفلة جائعة. ثم في لحظة يغرق كل شيء في السواد ويتوحش، ولا نرى أي شيء ولا حتى المنطقة المحيطة بالأشجار. عندئذٍ أعود منهزمة إلى المغارة، أضع رأسي بين يدَي، وأكتم نشيجي. كان إيريش يدعني وشأني. أحيانًا يقترب ويحاول أن يحضنني ولكنني كنت أجيبه بأنني لا أهتم بعناقه. أريد فقط أن يطلع النهار.

بمجرد أن يعود النور أنسى في لحظةٍ ذلك الظلام المؤلم وأنظر حولي وأحلم بعينين مفتوحتين. كنت زوجة شابة صعدت الجبال حبًّا في زوجها المغامر. ومحاربة يخشاها الألمان. ومُدرسة أخذت أطفالها إلى الأمان.

بعد الظهيرة، عندما يمر الوقت بصعوبة، نستند بظهرينا إلى شجرة ونتحدث عن أشياء لم نتحدث عنها قَطُّ.

قال لي في إحدى المرات وهو ينفخ في يديه: ـ من يدري أين ماريكا؟

تسمرت وكأنني رأيت ذئبًا، واقتربت منه. لم يكن قد نطق اسمكِ قَطُّ، كرر عبارته، ثم قال إن الوقت الذي لم نكن نستطيع فيه الحديث عن هذا الأمر قد انتهى.

ـ أريدها فقط أن تكون بخير وفي أمان، وأتمنى ألا تكون الحرب قد فعلت بها شيئًا.

سألته:

ـ ألا تتمنى أن تراها مرة أخرى؟

ـ لا أعتقد أن هذا سيحدث.

ـ وأختك؟

ـ أجل، أريد أن أراها مرة أخرى.

ـ حقًّا، تريد أن تراها؟

ـ أجل، لأسألها لماذا.

ـ فقط لكي تسألها لماذا؟

ـ أجل يا ترينا. هذا فقط.

الفصل الحادي عشر

فقدت القدرة على إحصاء الأيام. كنت أسأل إيريش متى سنرحل لنذهب إلى المزرعة. يجيب بأنه لم تحن اللحظة المناسبة، عندئذٍ أشعر بالضيق لأنني أريد أن نرحل من هنا. عندما أسأله كيف سنعرف في أي مرحلة أصبحت الحرب، يقول إنه لم يمضِ علينا هنا أسبوعان.

انتهى اللحم المحفوظ في الملح. وانتهت «البولينتا» والفطائر. نفد الجبن والرقائق. ينزل إيريش ويختفي بضع ساعات. أبقى بمفردي على تلك القمة لأنظر إلى الوادي وأشعر بدوار غريب، وقفة ريح تشل حركتي. كان يستطيع أن يأخذ من الفلاحين شريحة لحم خنزير، أو قطعة من الجبن، ولكن أصبحنا نأكل أقل باستمرار، ازدادت نحافة وجهه، وأصبح مجوفًا تحت لحيته الخشنة. كان يصطاد حيوانات الغرير، الثابتة كالتماثيل بأن يضربها بالعصا بين كتفيها. كان أكلها عيدًا بالنسبة إلينا. نشعل النيران تحت الشواية ونحمر اللحم ونأكله حتى تبيض العظام. ازداد شعوري بأنني برية، ولكنني لم أشعر بأنني فقدت ملامحي الإنسانية كما حدث عندما كان في الجبهة.

في صباح أحد الأيام ذهب إيريش للصيد، وأخذت أتبع مسار مجرى نهر. اعتقدت، كحالمة، بأنني سأعثر على سمك، إلا أنني استطعت بصعوبة أن أملأ القارورة بقطع من الثلج. عندما عثرت على منزل أحد الفلاحين، طرقت الباب. فتحت لي امرأة، حكيت لها أننا هاربان من الحرب وأننا نحاول الذهاب إلى سويسرا. حصلت على عبوة حساء وقنينة نبيذ. وأقسمت لها بأنني سأعود لأدفع ثمنهما، واتخذت طريق العودة إلى المغارة شاعرة بالانتصار، متخيلة شفتَي إيريش البنفسجيتين تبتسمان لي برضا. سيقول لي وفمه ملآن: «يوم آخر مر». وسنشرب النبيذ ونستمتع ونحن نشعر به وهو ينزل إلى معدتينا.

صعدت ببطء بين الأشجار، وخطواتي تنغرس في الثلج الجاف وكأنه الملح القديم. أفكر في إيريش وهو يحاول التخلص منه، كما في صراعنا اليومي. سمعت أصواتًا، أصواتًا ألمانية تطرح أسئلة بإلحاح، أصواتًا عنيفة، صارخة. كانت المغارة على بُعد عشر خطوات من مكاني. مددت جذعي لأتمكن من رؤية ما يحدث. كان الجنديان يديران ظهريهما تجاهي، ويكرران بإصرار: «مُقاوم؟» و«هارب من التجنيد؟» ولم يكن إيريش يجيب. جثمت. حدق فيَّ طائران من فوق الأغصان. نزلت ببطني في الثلج، وخدر البرد ثديَي. الآن أراهما جيدًا. استمرا في استجواب إيريش. أخرجت المسدس، لم يكن فيه سوى ست طلقات، وأمسكت به بكل قواي. سددت على ظهر الأول، سقط

مرتطمًا بثقل. التفت الآخر على الفور فأصبته في صدره. أطلق صرخة مختنقة. أخذت أضرب الرصاص على الجسدين الممددين حتى انتهت طلقات المسدس. وقف إيريش كالمشلول وظهره مستند إلى الصخرة. يحدق في وجهي وعيناه متحجرتان وكأنه لا يعرفه. هززته وكأنه غصن مُحمل بالثلج، وزمجرت له من بين أسناني بأن يتحرك. عندئذٍ ساعدني وأخذنا أسلحة الألمانيين. أمسكت أنا بواحد وأمسك هو بالآخر. واتسخنا بدمائهما. فتشنا في معطفيهما، وأخذنا من جيوبهما النقود التي عثرنا عليها. إحدى المحفظتين كانت ممتلئة بالماركات الألمانية. بتلك النقود يمكننا أن نبتاع ما نأكله من منازل الفلاحين وندفع الضيافة التي سيمنحوننا إياها في المزرعة. جررنا الجثتين إلى المغارة. وضعت فوق الجثتين المسدس الفارغ وغطيناهما بالثلج. وكان الثلج الذي سيسقط في الليل والأيام التالية كفيلًا بدفنهما إلى الأبد.

أخذنا نسير إلى أعلى أكثر. بخطوات سريعة كخطوات القتلى. كان الثلج الذي نسحقه ونترك عليه آثارنا ثقيلًا ولزجًا. أمسكنا المسدسين بقوة، وقلب كل منا يلكم صدره.

قال إيريش:

ـ توجد آثار أقدام أخرى. لا بد أنهم قد وصلوا إلى المناطق المرتفعة.

غيرنا اتجاهنا. سرنا من دون أن نتحدث. عندما نجد على الأرض آثار حيوانات أو أحذية، نغير مسارنا. وشل البرد أيدينا. سألته عندما اختفت الشمس خلف الجبل: ـ أين نحن؟

قال:

ـ الحدود السويسرية هناك.

صرخت فيه بيأس:

ـ والمزرعة؟ أين تلك المزرعة؟

قال إيريش بضياع:

ـ لا بد أنها قريبة.

لم تعد أرجلنا تحملنا. كنت متأكدة أننا سنموت خلال بضع ساعات. عندما ألقيت بنفسي أرضًا، أمرني إيريش أن أنهض على الفور وألا أتوقف عن السير لأي سبب كان.

ـ إذا توقفنا سنموت مُجمدين.

لم تعد هناك أشجار، لم يعد هناك شيء على الحواف الجبلية البعيدة، الثلج فقط.

قال إيريش، من دون أن تكون لديه القوة ليصيح: ـ انظري هناك!

وسط الأبيض كان يوجد مبنى صغير من الحجر. اقتربنا. كانت توجد كنيسة صغيرة دائرية، على السطح البارز يظهر صليب مغروس هناك وكأنه ريشة.

لم نسمع أصواتًا قادمة من الداخل. فتح إيريش الباب. وقف ثلاثة رجال على الفور. صاحوا شيئًا ما بالألمانية، ثم انطلقت رصاصة.

صرختُ:

ـ لا تطلقوا النار.

رفعنا أيدينا، ونحن ما زلنا ممسكين بالمسدسين. أصبح هذان المسدسان جزءًا لا يتجزأ من جسدينا.

صرخت:

ـ لسنا جنودًا! لسنا نازيين ولا فاشيين.

تبادلوا النظرات، ثم سألنا أحدهم وهو يخفض سلاحه: ـ هاربان من التجنيد؟

أومأنا بالإيجاب برأسينا. أمرونا بأن نبعد السلاح، وطلبنا منهم أن يفعلوا بالمثل. طمأنهم وجهي، حتى وإن بدا لمُشردة.

سأتذكرهم إلى الأبد أولئك الثلاثة. كان لدى الأب ذلك التعبير العجيب، وجه ماعز وأنف أفطس، عدسات نظارته سميكة وتُصغر من حجم وجهه. الابنان شاحبا الوجه ومذهولان. ذكراني بمايكل. بينما هما يهربان من الألمان، يطارد مايكل من يقاوم النازيين. لو دخل إلى هنا، لقتلهما، أو لقتلاه.

أكلنا خبزًا بلا ملح. كانوا على وشك أن يشعلوا النيران وساعدهم إيريش. عندما أضاءت النيران جدران الكنيسة الصغيرة، بدت وكأنها استعادت حياتها وشكرتُ الله كالجبانة، لأنني أصبحت في الدفء.

أخرجت عبوة الحساء وقنينة النبيذ، سألتهم وأنا أضع كل شيء بجوار النار: ـ هل رأيتم أي جنود؟

قال الفتى الأشقر وهو يشرب النبيذ: ـ يعلم الألمان أنه يوجد هاربون من التجنيد لجأوا إلى تلك الجهات بالقرب من الحدود.

وتدخل الابن الثاني وقال:

ـ لا بد ألا تقتربا كثيرًا من القمم. فالشرطة السويسرية تعتقل الهاربين كل يوم.

قصوا علينا كيف أن الحرب بدأت تسير على نحو سيئ بالنسبة إلى هتلر. كشفت حملة روسية أنها كانت كارثية. وفي ستالينجراد سقط قتلى بالآلاف، ومخازن المدن أصبحت مليئة بالجرحى المتروكين وحدهم. قالوا إنهم يحاولون الوصول إلى بيرن حيث لديهم أقارب سيعملون على حمايتهم. كانوا من بلدة ستيلفيو. انتهز الابنان فرصة الإجازة ليهربا، ولم يكن الأب قد تقدم بعد للتجنيد. مثل إيريش، حارب هو أيضًا مع الصفوف الإيطالية، ثم لم يرغب في أن يحدثه أحد مرة أخرى عن الحرب. ماتت الأم قبلها بأعوام. قال الابن الأصغر: ـ إذا كانت ما تزال على قيد الحياة لرفضت تمامًا أن تتحرك من بلدتها، وكان النازيون سيقبضون عليها أو سيعدمونها رميًا بالرصاص بسببنا.

لم أقل أي شيء. كنت أنظر إليهم وأشعر بالاشمئزاز منهم، ومن النازيين ومن ابني. اشمئزاز مختلط بالرغبة في أن أجده بجانبي وأضع معه يدَي بجوار دفء شعلة النيران.

قال الأب أيضًا:

ـ وصل الألمان إلى هنا، لا يجب أن تبقيا هنا. لكي تنتظرا نهاية الحرب لا بد أن تصعدا إلى أعلى، ستعثران على هاربين آخرين، توجد ملاجئ وأكواخ للتبن.

قال الفتى الأشقر ليطمئننا:

ـ ليس الجو أبرد بكثير من هنا.

قدموا لنا قهوة «شيكوريا» وبدا لي ذلك السائل المر، طيب المذاق، إلى حد أنني رغبت في أن أغمس وجهي بداخله. أعطوا سيجارة لإيريش ـ الذي لم يكن معه أي تبغ ـ ليدخن وفرح جدًّا بتلك السيجارة المعوجة إلى حد أنه احتفظ بالدخان في صدره أطول مدة ممكنة. أحد الابنين أفرغ الفنجان وذهب ليقف على العتبة بمسدسه.

قال الأخ وهو جالس مكانه:

ـ خلال ثلاث ساعات سآتي لآخذ مكانك.

في الصباح استيقظت والفتى الأشقر مستند إلى كتفي. قبل أن نرحل تركوا لنا قطعة من خبزهم عديم المذاق. صنعنا من الأغصان أقراصًا نضعها أسفل أحذيتنا لنسير في الثلج. جعل إيريش الأغصان أكثر مرونة بواسطة السكين، وربطتها أنا بالحبل الذي قطعته من كرة الصوف بأسناني. وصنعنا البعض لهم أيضًا. كرر الأب علينا أن نصعد وألا نخشى البرد، ثم اتجه من دون أن يحيينا إلى الاتجاه المعاكس لنا. ورأيناهم يبتعدون ويتضاءلون وسط اللون الأبيض.

استمر الثلج في التساقط، وارتدينا في أقدامنا كل الجوارب التي معنا. تذكرت مقولة أمي أن برد القدمين هو برد الجسم كله. كنت أفكر كثيرًا في أمي. أتذكرها وهي جالسة على الأريكة قليلة القش، وهي تخيط، وبينما تخيط لم أكن أعرف قَطُّ ماذا يدور في ذهنها.

عندما التفت لأنظر إلى الكنيسة الصغيرة ذات الصليب، كان الثلج قد تراكم بالفعل على الباب. الآن لا يمكن لأحد الدخول. فكرت في جثتَي الألمانيين اللذين قتلتهما. حولنا لم يكن سوى اللون الأبيض وصخب الريح.

الفصل الثاني عشر

سرنا لساعات في ذلك البرد القاتل. بمجرد أن توقف الثلج للحظة، أجبرنا أنفسنا على أكل الخبز. يدخل الثلج في أحذيتنا البالية. وأثناء تناولنا الطعام نهض إيريش بسرعة، وأشار إلى رجلين يسيران بعيدًا. وضع الخبز في جيبه وبدأ يجري حتى تقطعت أنفاسه، وهو يصيح بأعلى صوته: ـ أنتما، هناك!

وهو يتعثر مع كل خطوة، كانت كل صرخة له تتلاشى في تلك الصحراء البيضاء. حاولت أن ألحق به، مع تلك الحقيبة الملعونة التي تحني ظهري. كنت أود أن أترك نفسي لأسقط. لأموت.

أخذت أصيح:

ـ إيريش، توقف!

ولكنه استمر في الجري، وهو يغرس العصا في الأرض، حتى كُسرت العصا وسقط.

صرخت مرة أخرى:

ـ لن تلحق بهما يا إيريش، توقف!

عندئذٍ اقترب مني وهددني مقطوع الأنفاس: ـ لا بد أن نتبع آثار أقدامهما يا ترينا، قبل أن يمحوها الثلج. إن هذين الرجلين فلاحان، يمكنهما إرشادنا إلى الطريق.

قادتنا الآثار بالفعل إلى المزرعة. توقفنا مستندين كلٌّ إلى عصاه ننظر إليها. انتظرنا منحنيين على ركبتينا حتى تهدأ أنفاسنا. شعرت بالدموع تتجمد.

عندما خرجت امرأة أمام الباب لتزيل الجليد، دفعني إيريش إلى الأمام. أخرج بطاقة الأب ألفريد. بدا لي أن رجلَي استسلمتا، وأنني لن أستطيع تحريك قدمَي المتجمدتين مرة أخرى. حييتها بصوت طفلة تحاول الحصول على الصفح. كانت المرأة سمينة، وشعرها أشعث يبدو كالشوك. كانت تكفيها نظرة واحدة لتفهم أننا هاربان من التجنيد.

قلت:

ـ لقد أرسلنا الأب ألفريد، كاهن كورون.

لم تُجِب، فأكملت وأنا أسلم لها البطاقة، التي لم تنظر حتى إليها: ـ هربنا من الحرب، ونكاد نموت من البرد.

نادت اسمًا، من دون أن ترفع عينيها عني. ومن الباب خرج مسن يحتضن بندقية. ثم ظهر رجل آخر، ثم آخر أيضًا يرتدي زي كاهن. وخرجت أيضًا امرأة تُمسك بفتاة في يدها. عندئذٍ اقترب إيريش رافعًا يديه، من دون أن يتشبث بالمسدس. استمر الثلج في الهطول علينا. لا شيء أكثر قسوة من الثلج الذي يتساقط فوقنا.

داخل المزرعة كانت المدفأة موقدة. وفي الحجرة الوحيدة كانت المراتب متكِئة على الجدران، مراتب ممزقة ينامون عليها كلهم. كانت الأرض مائلة، وبالسير عليها شعرت بالدوار. كان جلدي مشدودًا والطريقة التي كان أولئك الخمسة يراقبونني بها تشعرني بالضيق. تبعث النيران حرارة بدت وكأنها تحرق وجنتَي، وحتى إن أردت أن أحبس دموعي، شعرت بأنني لم أعد أستطيع ذلك.

سألنا الرجل متوسط العمر:

ـ هل أنتما نازيان؟

ـ لا.

ـ هل أنتما فاشيان؟

ـ لا، لسنا فاشيين.

أعلن إيريش بضيق: ـ لسنا نازيين ولا فاشيين. لسنا أي شيء. لسنا سوى فلاحين. وأنا لا أرغب في أن أعود مرة أخرى لأحارب.

وكررت أنا:

ـ نحن أصدقاء الأب ألفريد، كاهن كورون.

وأخيرًا ابتسم القس.

سلمت له السيدة السمينة البطاقة، قرأها الكاهن، وعندئذٍ أمسك أيدينا، واحتضن إيريش وكرر ترحيبه بنا. يمكننا أن نساعدهم في العثور على الطعام، وإصلاح الحظيرة، حتى إذا لم تعد لديهم حيوانات. فلقد باعتها المرأة السمينة في سوق ما، مقتنعة بأن النقود ستلزمها أثناء الحرب.

ثم اختتم القس قائلًا:

ـ ولكن أثناء الحرب لا قيمة للنقود.

قالت ابنة المسن:

ـ نحن أصدقاء من البلدة، هربنا من ماليس منذ بضعة أسابيع.

تدخل إيريش:

ـ سنعطيكم ثمن الإيجار ما لدينا، نعرف أن ما تفعلونه تضحية.

أومأت المرأة المسنة ودعتنا لأن نقترب. كان النعاس يسحقني وكنت أرغب في أن أجلس بمفردي. لم تبدُ لي البرودة التي تسود هناك بالداخل باردة. ابتسمت المرأة نصف ابتسامة عندما قلت: ـ إذا كان يلزمكم لديَّ هنا مقلاة، فلقد صعدت إلى هنا وقبضتها مغروزة في ظهري.

ابتسمت المرأة السمينة، ثم أشارت إلى باب يؤدي إلى المنطقة الخلفية: ـ إذا وصل الجنود عليكم أن تهربوا من هناك. نحن المزرعة الأخيرة، لا تبحثوا عن مساكن أخرى. على بعد بضعة كيلومترات تبدأ سويسرا.

ـ وأين يجب أن نهرب إذا وصلوا؟

ـ نحو الشرق. عليكما أن تنزلا بمحاذاة الجبل حتى تصلا إلى صف من الصنوبريات. هناك توجد بعض مخازن التبن.

عدنا إلى النيران. أخذ الزوجان متوسطا العمر يفحصاننا من رأسينا حتى أقدامنا. الابنة تُدعى ماريا، كانت بكماء وظلت طوال الوقت تحدق فينا بعينَي دمية من القماش.

قال المسن لإيريش:

ـ هذه الليلة سنتناوب على الحراسة نحن فقط. من الغد، بعد أن تستريح، سيحين دورك أيضًا.

الفصل الثالث عشر

في صباح اليوم التالي تساقطت الأمطار. كان القس يصلي بيدين مضمومتين، يلفه رداؤه الأسود الذي أشعرني بالكآبة. تتحرك الأم في المكان وظهرها لنا، من حين إلى آخر تقول للابن: «لقد أخطأت بأن أصبحت قسًّا، كان لا بد أن تتزوج فرانشسكا». يجيبها بصبر: «لقد ارتبطت بالرب يا أمي».

كان القس هزيل الكتفين قصير الشعر، ووجهه لا يشي بسنه. عيناه سوداوان مثل الرداء الذي يكئبني.

سألته:

ـ هل يمكنهم محاسبة القساوسة أيضًا للتهرب من التجنيد؟

أظهر لي ابتسامة التعاطف نفسها، ثم قال لي إنه لم يهرب من التجنيد، ولكنه فقط رفض إطاعة النازيين. ثم قال بصوت هادئ:

ـ إن هتلر ليس سوى وثني. والكهنة الذين يصغون إليه لا يستحقون المسيح.

حكى لي أن والد ماريا عادة ما يذهب إلى الصيد ويمر على أحد الفلاحين الذي يترك له دائمًا شيئًا ما، بعض السجق أو الجبن. منذ أن أصبحت الفتاة بكماء، لم يعد الأبوان يتحدثان كثيرًا. مرة كل عشرة أيام يأتي اثنان من أبناء عمومة والد ماريا ليحضرا له في منطقة سرية من الجبل كيسًا من «البولينتا» وبعض البيض. قال أيضًا إنه لا يمكن لأي منهم العودة إلى ماليس حتى نهاية الحرب.

سألته:

ـ هل ستنتهي الحرب قريبًا؟

فرد يديه من دون أن ينطق بكلمة.

ذهب إيريش إلى الخارج وأخذ يتحدث مع المسن. ثم أخذ ينظف الحظيرة، ويصلح المعالف، ويستبدل الألواح الخشبية المتهالكة تحت ثقل الثلج. سألتُ المرأة السمينة كيف يمكنني أن أكون مفيدة. عندئذٍ خرج منها صوت هادئ وقالت إن عليَّ فقط الاهتمام براحتي وأن أحكي لها عن حياتي قبل أن تندلع الحرب. وهكذا حكيت لها كيف أنني درست لأصبح معلمة، وأنني عملت أيضًا

فلاحة، وفي النهاية هربت في ليلة من الليالي إلى هنا لأن زوجي قرر أن يهرب من التجنيد.

علقت وهي ترفع ذقنها لتشير إلى ابنها الذي أخذ يصلي من جديد:

ـ سنلقى حتفنا بسبب اتباعنا للرجال.

في الخارج بدت السماء صافية وانعكست الظلال على الثلج. لم يكن اللون الأبيض يترك مساحة لأي شيء آخر. أخذت المرأة السمينة تخلط «البولينتا» وتطهو بصلة في مقلاتي. شعرت بالسعادة لأنها تستخدمها.

وقالت برضا:

ـ الأسبوع الماضي عادوا بغزال، ومرة سابقة عادوا بديك بري. أكلنا لحمًا حتى يوم الجمعة. من يدري إذا كانوا سيعثرون على المزيد، فأنا أحب اللحم جدًّا.

أضاف القس:

ـ اضطررنا لأكلها بسرعة لأن الحيوانات المتوحشة تشتم الرائحة. نقوم بحراسة الليل خوفًا منها أكثر من خوفنا من الألمان. فنحن في مواجهة الألمان لن يكون لدينا شيء نفعله.

سألته:

ـ سيصلون إلى هنا؟

وفتح ذراعيه مرة أخرى، ونظرت إليَّ الأم معتذرة وتمتمت:

ـ لا فائدة من طرح الأسئلة على القسوس، يفتحون فقط أذرعهم. حتى وهو صغير كان يفتح دائمًا ذراعيه. يسرقون ألعابه، ويوسعونه ضربًا وبدلًا من أن يرد عليهم كان يفتح ذراعيه.

أكلنا معًا على مائدة قديمة أعدها القس بعناية. لم يكن في استطاعتنا النظر حتى إلى الصحن قبل أن نصلي: «يا رب بارك طعامنا الذي نتناوله الآن، وامنح مثله لكل العائلات في العالم». كانت هذه هي صلاته. وبعد تناول الطعام ينسحب المسن ليلمع بندقيته ويكرر أنه بهذا السلاح قتل عشرات الإيطاليين في الحرب الأولى.

وكان يقول دائمًا:

ـ ما دام معي هذا السلاح فهذا يعني أنني نمساوي.

ذهب إيريش ووالد ماريا إلى الخارج ليدخنا، وكانا ينظران إلى السماء وهي تتضرج بالحمرة ثم يغطيها السواد. كان إيريش ممتنًّا للصحبة وللصمت. نحن الباقون جلسنا لنشرب كوبًا من الماء الساخن الذي أجبرتنا المرأة المسنة على ابتلاعه لأنه في رأيها يجنبنا حالات الإمساك. نتخيل نهاية الحرب، قلت إنني أتوق إلى الساعة التي أعود فيها إلى التدريس، وأخذت والدة ماريا تشجعني وهي تردد أنني سأكون بالفعل مُدرسة ماهرة. لم تكن للقس أحلام، كان يكفيه أن يعود إلى كنيسته ويقيم القداس مرة أخرى. وعندما نتحدث عن أمنياتنا يبتسم ابتسامته المتحفظة، وكنت أشعر برغبة في أن أحكي له عنكِ. حتى المرأة السمينة لديها حلمها، كانت تتمنى أن تصبح جدة وأن يمتلئ بيتها بالأحفاد.

وهكذا نترك أنفسنا للخيالات تحملنا على الرغم من أننا أنهينا فناجيننا ونحملها باردة بين أيادينا، وكأن بداخلها مياهًا. عندما يعود الرجال يسود الصمت من جديد فيعيدنا مرة أخرى لنقف على أرض الواقع، وينظر كل منا إلى الآخر محرجًا وكأننا ارتكبنا خطية بأن نحلم هذا الوقت الطويل.

يخرج إيريش ووالد ماريا في الصباح الباكر بحثًا عن منازل الفلاحين ليروا إذا كان في إمكانهما المساعدة. يساعدان في جمع التبن في الخيش، ويحملانه على كتفيهما وينقلانه إلى الحظائر. وفي المقابل يحصلان على شرائح من لحم الخنزير أو قطع من الجبن، أو بعض لترات من الحليب الذي كان يسعدني أنا وماريا. إذا لم يكن الثلج يتساقط، يذهبان للصيد. أحيانًا يتقابلان مع بعض الرعاة وهم يجرون بعض الأبقار وينامون ليلًا في التبن، وتقابلا عدة مرات مع هاربين آخرين. وإذا استطاعا تجاوز الشك يتبادلون الأخبار ثم ينقلانها إلينا أثناء تناول الطعام. بمجرد أن يرحلا يحتضن المسن بندقيته ويقف بثبات على عتبة الباب للحراسة، ويصبح وجهه قاسيًا. لم يجلس المسن معنا إلى المائدة قَطُّ، بل يظل واقفًا ممسكًا بالصحن الصفيح في يده. لم يكن حتى يصلي. يأكل بسرعة ثم يقول إنه ذاهب لينظر إلى السماء ليعرف كم الساعة. يمكث بالساعات يراقب السماء، بصبر، وكأنه عالم فلك.

كنت أساعد في المطبخ فقط في حالة وجود لحم، فيما عدا ذلك تفضل المرأة السمينة ألا يضع أي شخص آخر قدميه في المطبخ. عندما كنا نرى الرجال وقد وصلوا بحيوان، واحد فقط يقف حارسًا للأكواخ، وحتى القس، بعد أن يبارك

اللحم، يبدأ في السلخ. ثم نثبت الألواح على الأرض ونتركها لتتصفى طوال اليوم. نهتم نحن النساء بتقطيعها لشرائح. أثناء وضع اللحم تحت الملح أتذكر المنزل وأتساءل إذا ما حرقه الألمان، أو أعطوه إلى آخرين.

تنظر إلينا ماريا بعينيها الغائبتين، ولا ترفع إصبعًا أبدًا. شعرها أشقر رمادي، ويداها طويلتان ورفيعتان. تشبه أمها تمامًا، التي تبقى دائمًا في المنزل مع المسن وتنظر إليَّ بطريقة تضايقني.

كل يوم أفتح الباب وأتمنى أن يكون الثلج قد ذاب. أريد أن ألمس العشب الأخضر والصخور الفضية والأرض الحجرية. إلا أنه حتى بحلول الربيع أجد الأبيض الناصع هو ما أصابني بإحباط. أسمع خبطات سقوط الثلج من فوق أشجار «التنوب» ثم أعود إلى الداخل. أسأل القس عن اليوم وهو يجيبني صبورًا باسم أحد القديسين. يقول إن الصلاة هي أفضل طريقة لانتظار نهاية الحرب. وهكذا أركع معه وأستمع إليه يردد عشرات المرات الصلاة نفسها.

في إحدى الأمسيات، وتحت الحقيبة التي أستخدمها كوسادة، ترك لي مفكرة وقلم رصاص. أعتقد أن هذه المفكرة بالنسبة إليَّ كانت بمنزلة طوق النجاة في زمن الحرب الساكن. ملأت الأوراق بالحروف. في البداية كتبت لمايا خطابات طويلة من ذكريات تلك الأعوام على شواطئ ريزيا ونحن نُعد لامتحان التخرج، أو عندما كنا نلتهم بالملعقة قشدة أمي. ثم بدأت أكتب لباربارا، وفي نهاية كل خطاب أسألها إذا كانت أختها قد سلمتها بطاقتي وأحييها وأنا أقسم لها بأنني لم أنسَ قَطُّ عندما كنا نتمدد على العشب أو نجلس بين الأغصان وكأننا طيور السنونو. طلبت من إيريش أن يساعدني لأرسلها، ولكنه ضحك وقال إنه لا توجد طريقة لإرسال خطابات لأننا على قمة جبل.

منذ أن بقينا في المزرعة لم يعد لإيريش ذلك الوجه الهزيل، وحلق أخيرًا كل تلك اللحية الخشنة أمام قطعة مرآة معلقة على الجدار. كان يحب أن يقضي الوقت مع والد ماريا، وأن يذهب معه إلى الصيد وأن يحاولا معًا استبدال خشب الحظائر المعطن. قال القس والمرأة السمينة إنهما استفادا من وجود شخص مثل إيريش معهم، وعندما أعطيناهما نقودًا للإيجار أعادا إلينا بعضًا منها. أحيانًا عندما لا يجدا هو ووالد ماريا شيئًا ليفعلاه يعودان وهما يمضغان التبغ. حتى إذا شربنا فقط الماء الساخن وأكلنا بعضًا من العشب المطهو في تلك الأمسيات، كنت أشعر بالسعادة لأنه وجد صديقًا.

عندما حل الصيف كانا ينزلان حتى النهر ويعودان ببعض أسماك صغيرة تعسة، نلقي بها أنا والمرأة السمينة في الشواية. كنت آكلها وأنا أكتم أنفاسي حتى لا أشعر بالمذاق البشع الذي تتركه في فمي.

يحاول القس بعد صلوات الصباح أن يعلم ماريا أن تصلي. في إحدى المرات أجلسني بجوارهما وبينما يصلي كنت أفكر كم هو محظوظ من يفكر أن كارثة الحرب، والاقتراب المستمر من الموت أشياء تدخل في نيات الله. بالنسبة إليَّ كانت تثبت لي فقط أنه من الأفضل عدم وجود إله. مرات عديدة كنت على وشك أن أخبر القس عنكِ، وكيف كنتِ جميلة ورائعة، وأن أحكي له عن الليلة التي هربتِ فيها. ولكن فكرة أنه سيجيبني: «الله يمنح آلامًا جسامًا فقط لمن يستطيع تحملها»، كما سبق وسمعته مرة يقول، منعتني.

بعد الصلوات أسأل ماريا إذا كانت تريد أن تجلس معي أمام المزرعة. عندئذٍ يقترب منها والداها ويربتان على وجهها وهما يرددان باستعطاف: «اذهبي مع ترينا»، وكأنها على وشك الذهاب في رحلة طويلة. عندما نجلس بمفردنا أريها أكوام الصخور البيضاء وبعض أشجار الصنوبر المتبعثرة، بقع الأرض الداكنة التي تُفتح تدريجيًّا حيث يذوب الثلج، الأودية المتفرقة، بقاع شجر «الباتولا»، العصافير التي تطير بأجنحتها المفرودة غير عابئة بالقنابل ولا بالجنود. لم تكن عينا ماريا شاردتين، وهي معي، ولكن مليئتين بالطفولة والسعادة. تشير إليَّ بكل ما تراه: نسر يطير عبر سحابة، الحصى اللامع للوادي. تحب أن تسمع صوت الثلج وهو يتهشم تحت حذائها. تجيبني بإيماءة «نعم» أو تهز رأسها «لا»، وتدعني أضع يدي على شعرها الأشقر الرمادي الذي غسلته أمها بعناية بعد عودة الشمس. مكثت أيامًا لا تُحصى معها، يصعب العثور على أي معنى فيها. من حين إلى آخر أناديها «ماريكا». في الأيام الممطرة نبقى داخل المنزل، ترسم ماريا في مفكرتي، ترسم خيولًا بأعراف سميكة، وكلابًا بشعر طويل.

سألتها:

ـ هل ترسمين لأنك لا تعرفين الكتابة؟

عندئذٍ أمسكت بيدها وقدتها لترسم اسمها. ضحكت ماريا عندما رأت الحروف التي تتكون.

ـ أتتذكرين الآن؟

أجابت نعم برأسها، والدهشة تملأها، وأخذت يدي في حماس وهي ترجوني أن أكتب المزيد. أشرت إلى أشجار الصنوبر والسحب والشمس ثم جعلتها تكتب

تلك الكلمات على ورقة. وبجوارها ترسم هي معناها، وخلال بضعة أيام كوَّنَّا كتاب «ألف باء»، أخذت ماريا تُطلع أبويها وجدَّها عليه بفخر.

عندما أقول لها إنني متعبة تذهب إلى الثلج وتضع ركبتيها في الأرض، ثم تنهض وفي رضا تراقب مكان حفرهما على الثلج الأبيض. أراقبها من داخل الكوخ ولا أعرف لماذا أشعر عندها برغبة في البكاء.

في المساء، بينما أستلقي على فراش من الأوراق، لم أكن أرغب في النوم لأنني أعرف بأنني سأحلم بك. إلا أنني تقريبًا أحلم دائمًا بالفتى الأشقر الذي نام على كتفي وقد أتى ليوقظني وهو يصيح: «ترينا، انتهت الحرب!».

أحيانًا كنت أقول لإيريش: «سنعيش هنا حياتنا كلها، ثم في يوم لا نتوقعه سيأتي ألماني، أو ربما إيطالي ويطلق النار على ظهرنا». عندئذٍ كان إيريش يتنهد وأسرع من المعتاد يضع قبضتيه في عمق جيبيه، ويقول مغيرًا الموضوع: «غدًا سأذهب إلى فلاح وأطلب منه بعض الجبن، ثم يمكننا أن نتمشى نحن الاثنين بمفردنا».

إلا أننا لم نتمشَّ قَطُّ وحدنا، لأنه يمكث ليتحدث مع القس، بينما أنا أحب أن تكون ماريا بجواري. وكنت أحب أن تأتي معنا أيضًا المرأة السمينة التي تشجعني دائمًا ضاحكة، عندما يهاجمني الحنين، وتقول: «تشجعي، فحتى اليوم لم نمُت!».

الفصل الرابع عشر

تكاثفت العمليات الانتقامية للألمان في نهاية عام ١٩٤٤. كانت الأخبار القليلة التي تصل إلينا عن حرق مزرعة، وترحيل هاربين من التجنيد، وأقارب الهاربين من القرعة مُلقى بهم في السجن. وهكذا قرر الرجال أن يتناوبوا على الحراسة اثنين في المرة. إيريش والقس، والمسن ووالد ماريا.

وكانا، هما الاثنان، من رأَياهم قادمين. في أحد أيام شهر يناير من عام ١٩٤٥. كانت مجموعة من خمسة جنود متلفحين في معاطفهم ويرتدون أحذية طويلة للثلج. كانت الشمس قد أشرقت للتوِّ، وكنا جميعًا قد استيقظنا لأن المرأة السمينة تقول إن علينا استغلال الساعات القليلة المضيئة، وتوقظنا وهي تصفق بيديها. القس هو الوحيد الذي يستيقظ قبلها. ينام أقل من الجميع ولأكثر من عام لم أرَه مرة واحدة على فراشه. ينام الأخير وعندما أفتح عينَي يكون بالفعل مرتديًا زيه الكهنوتي.

كانت المرأة السمينة تُسخن بعض بواقي قهوة الشعير، والقس أمام المدفأة يشعل النار. فجأة فتح المسن الباب بقوة وصرخ بصوت خشن: ـ الألمان، الألمان!

سقطت القدر من المرأة السمينة.

ـ هل رأوك؟

ـ لا لم يروني، ولكنهم سيكونون هنا خلال دقائق!

صرختْ وهي تدفعنا جميعًا إلى الخلف: ـ يوجد بسكويت ورقائق في الحقيبة المعلقة على الباب. اخرجوا جميعكم حالًا! اذهبوا إلى الشرق. توجد هناك مخازن للعلف خلف صفوف أشجار الصنوبر.

سأل القس:

ـ وماذا عنك؟

ـ سألحق بكم إلى هناك.

كان المسن يسير في ذلك الثلج المبرغل بلا جهد، وأمرنا بأن ننقسم إلى مجموعتين. ودفع مجموعته إلى الأمام ـ مع ماريا وأبويها ـ وأمرنا بألا نغفل عن أحد وأن نستعد لإطلاق النار. من حين إلى آخر يلتفت إيريش ليرى إذا كان الجنود يلحقون بنا ويتبادل إشارات تفاهم مع والد ماريا. بعد بضع خطوات شعرت بأن قدمَي ثقيلتان. كنت أفكر في أولئك الوحوش وهم يسيئون إلى المرأة السمينة، أو ربما قتلوها بالفعل. وبمجرد التفكير في هذا شعرت برغبة في إطلاق النيران مرة أخرى.

في لحظة ما، وقف القس وطلب منا أن نتوقف للصلاة. أجابه المسن ألا ينطق بتفاهات. عندئذٍ اقترب مني القس وقال لي إنه يعرف تلك الجبال مثل كَفي يديه لأنه وهو صغير كان يأتي مع أبيه وأخته إلى هنا.

ـ هل ستأتي أمك؟

ـ إذا لم يفعلوا بها شيئًا ستأتي. لقد أصبحت ثقيلة، ولكن ما زالت قدماها قويتين.

عندما وصلنا إلى مخزن التبن، أمرنا المسن بأن نصيح بصوت عالٍ: «سلام» حتى يسمعنا من بالداخل. أشار إلينا إيريش بآثار أحذية جبلية على الأرض. مر الألمان أيضًا من هنا. كان مخزن التبن، في واقع الأمر، فارغًا، وأحد أجزاء السقف ساقطًا، والباب مُقتحمًا. على الأرض توجد مراقد من أوراق شجر متعفنة وأكوام مبعثرة من القش.

قال والد ماريا:

ـ بدأوا يفتشون في المناطق المرتفعة. إذا عثروا علينا سيقتلوننا.

أجابه الرجل المسن، وأسكته:

ـ لن يعثروا علينا، لا بد أنهم الآن قد عادوا إلى الوادي.

دخلنا إلى مخزن التبن واحدًا تلو الآخر. جلسنا متلاصقين كالأرانب، ووضع والد ماريا يدَي ابنته في يديه. مكثنا في صمت. عندما حل المساء طلب منا القس مرة أخرى أن نصلي وأرضيناه. رددنا بلا رغبة كلماته. أخذت ماريا تنظر إليَّ بعينين شاردتين.

وصلت المرأة السمينة في الصباح، بخطوة بطيئة وابتسامة خبيثة على شفتيها المجمدتين من البرد. اختفت أفكار الموت التي لم تدعنا نرتاح، على الرغم من أننا كنا مُدمرين، في لحظة واحدة.

صاح القس وهو يجري نحوها:

ـ أحضرك الرب حتى هنا!

صاحت وهي تضحك:

ـ رب من! لقد أحضرتني إلى هنا قدماي العجوزان!

جرينا نحن أيضًا لنحضنها ووضعت هي بين أذرعنا الأشياء القليلة التي استطاعت أن تحضرها معها. حزمة عشب يمكن طهيه، قطعة من اللحم المقدد، كيس «بولينتا» وقنينة نبيذ.

ـ لا تنخدعوا. ستكفينا فقط اليوم، ربما الغد إلى أقصى حد.

دخلت إلى مخزن التبن، ولم تبدُ محبطة حتى أمام كل ذلك الشحوب. قالت إننا لن نموت من البرد بالتأكيد. نظرت إليها وأنا أحاول أن أبتسم لها. كنت أحسدها على ابتسامتها تلك أكثر من حسدي القس على إيمانه.

قالت للابن في نبرة لوم:

ـ كان الألمان يبحثون عنك. لو كنت تزوجت فرانشسكا لما حدثت تلك الأمور.

كرر لها القس:

ـ لقد ارتبطت بالرب يا أمي.

قالت وهي تشرب رشفة نبيذ من القنينة التي مررتها بعد ذلك من يد إلى يد: ـ حاولوا التأكد من أنك لا تخبئ هاربين من التجنيد. فتشوا في كل الأدراج والخزانات.

واختتمت بأسى:

ـ ولكنهم لم يصدقوني، وعندما رأوا المراتب المستندة إلى الجدران أقسموا أنهم سيعودون.

جلسنا ننظر أحدنا إلى الآخر من دون أن نتحدث، أما هي، ولكي تطرد تلك الفكرة، قطعت لكل واحد منا قطعة من اللحم المقدد، ثم قالت وهي تمضغ: ـ قبل أن يرحلوا نظروا مرة أخرى في الخزانة، وأخذوا ما فيها من أشياء قليلة. لحسن الحظ لم يلحظوا وجود أكياس «البولينتا». في الغد سيكون على أحدكم الذهاب وإحضارها، وسيقول لنا إذا كان في إمكاننا العودة.

سألها إيريش:

ـ هل سيعودون في رأيك؟

أجابت:

ـ أتمنى أن يموتوا!

في وجود المرأة السمينة أفكر أقل في الخوف. ربما بالمكوث بجوارها أُصبح أنا أيضًا مثلها، أُمًّا مع الغرباء، منفصلة عما يخصني، سواء المنزل أو الطعام أو حتى حرارة المدفأة.

بعد أن أكلنا اللحم المقدد، ذهب إيريش مع والد ماريا ليحضرا الحطب، ووقف المسن مرة أخرى مستقيمًا على عتبة الباب. قبض على البندقية وأمسكها مصوبة نحو المطلع الذي منه وصلنا الليلة السابقة.

تظل النيران مشتعلة بصعوبة لأن الأغصان التي استطاعوا الحصول عليها كانت مشبعة بالمياه. وارتفعت خطوط الدخان في المخزن فجعلتنا نسعل.

بمجرد أن ظهر الفجر رحل المسن بمفرده نحو المزرعة.

قال له والد ماريا بنظرته القاتمة: ـ سآتي معك.

ـ ابقَ هنا. لا معنى لأن يموت اثنان مرة واحدة.

عاد في المساء. في الظلام سمعنا كلمة «سلام»، ثم فُتح الباب المكسور. دخل بخطوته الثقيلة ومن دون أن يتحدث ذهب ليجلس بجوار حفيدته، أسند البندقية إلى الأرض وفرك يديه بالقرب من النار.

ـ لم يعد هناك أثر للمزرعة ولا للحظيرة. أولئك الأوغاد أحرقوا كل شيء.

الفصل الخامس عشر

عشنا معسكرين في مخزن التبن تقريبًا ثلاثة أشهر. كانت ماريا تُصاب باستمرار بالحمى وكنت أنا أحلم بأنني عثرت عليها ميتة على التبن الفاسد. أصبحنا جميعًا نحفاء، عظامنا بارزة ووجوهنا نحيلة. الجانب الإيجابي الوحيد أن الإنهاك لم يترك مجالًا للخوف. كنا نأكل بعض قضمات من العرعر والعشب المطهو والقليل من أشياء أخرى. ظللنا أيامًا عديدة صائمين. بدأت كمية «البولينتا» التي يتركها لنا أبناء العم تقل. ينتج منها مغرفة واحدة للفرد في وجبتَي الغداء والعشاء، ثم من جديد نصبح رهنًا لما يتمكن الرجال من الحصول عليه. بل لم يعد هناك فلاحون لديهم استعداد لبيع قطعة من الخبز أو الجبن. من استطاع النجاة من الحملات الانتقامية لا يدع أحدًا يقترب منه، حتى إذا وضعت له حزمة من النقود تحت أنفه، سيجيبك بأنها لم تعد لها قيمة دجاجة عجوز.

في نهاية شهر أبريل ذهب والد ماريا مع إيريش ليقابلا أبناء عمه. إذا كان الموت قادمًا لا محالة، فسيكون من الأفضل أن يحدث هذا برصاصة في الرأس بدلًا من أن نتعفن جوعًا أو تمزق الذئاب أجسادنا. لم يعد في إمكاننا الحياة من دون إحصاء الأيام، وأن يكون لدينا إطار زمني نتمسك به لنتمكن من الاستمرار في المقاومة هنا في الأعلى. يومًا بعد يوم أصبح باقي العالم يُمحى من ذاكرتنا.

في هذه المرة، وبالإضافة إلى «البولينتا» تركوا لنا بعض السكر وقنينة من خمر التفاح. ولكن الأهم أنهم قالوا إن الحرب على وشك الانتهاء. حيث أعلنوا:

ـ يحرر الأمريكيون كل أوروبا، وهتلر على وشك السقوط، باقٍ القليل من الوقت، ربما القليل جدًّا. اصمدوا، فربما المرة القادمة يمكنكم القدوم معنا!

رأينا إيريش ووالد ماريا في طريقهما إلينا وهما يتبادلان القنينة. كانت ضحكاتهما تظهر بين لحيتيهما الكثيفتين. في المخزن تبادلنا جميعًا الأحضان، ورفع المسن البندقية في الهواء. ثم أخذت المرأة السمينة تغلي المياه وقالت إنها تريد أن تعد «البولينتا» المحلاة لنحتفل.

وصاحت متحمسة وهي تزن الكيس بين يديها:

ـ سينتج منها ملعقة ممتلئة لكل منا!

سألتها:

ـ هل أساعدك؟

أجابتني:

ـ اذهبي أنت لتتجولي قليلًا مع ماريا، سيفيدك هذا.

كانت الفتاة تنتظرني أمام الباب وتنظر إليَّ كأنها كلب. اتجهنا نحو أشجار الصنوبر. خلفنا يسير إيريش والقس، منهمكان هما أيضًا في تخيل العودة إلى المنزل. كانت ماريا جميلة وهي ترتدي الوشاح الذي أهديته لها. عندما أنظر إليها أفكر أنكِ ربما تشبهينها.

لم نكن نغير مسار جولاتنا، لأننا اتفقنا على هذا. على الأقل، في حالة إذا لم يَعُد أحدنا، كنا نعرف أين نذهب للبحث عنه. عندما وصلنا إلى الوادي المعتاد، أخذنا نحن الأربعة، كما نفعل دائمًا، نجمع الأوراق الطازجة، ليكون لدينا فرش أفضل تحت ظهرنا. أرادت ماريا أن تتحداني في المبارزة مستخدمة الأغصان وكأنها السيوف، فقد أصبحتُ رفيقتها في اللعب. في ذلك الصباح استغرقت جولتنا وقتًا أطول من المعتاد. عدنا والشمس مرتفعة في السماء. كنا نشعر بالجوع، وكانت ماريا تضغط بإصبعها على خدها عندما تفكر في «البولينتا» بالسكر.

في الكوخ بدا جسد المرأة السمنية لطفلة بلا هموم، مستلقيًا على ألواح الأرضية التي كسرت من قوة السقطة، واستمرت الدماء تتساقط ببطء من رقبتها، وتصنع أشكالًا غريبة على الأرض. المسن مثقوب من الرصاص، وما زال ممسكًا ببندقيته، ويد ابنته موضوعة على صدره. لا بد أنهم قتلوا والد ماريا أثناء نومه، حيث كان ممدًا على الأوراق القديمة التي كنا سنستبدل بها ما جمعناه للتوِّ. كان غطاؤه مغموسًا بدمه.

في المساء أقام القس القداس، وابتعدت أنا لكيلا أسمعه. بينما يتحدث جلست أنا بالمسدس في الخارج للحراسة. عادت إليَّ من جديد رائحة الدم والتعطش للقتل.

بالتناوب أعددنا مدفنًا. مددناهم الواحد فوق الآخر حيث لم تكن لدينا القوة لنحفر أربعة مدافن.

في الليالي التالية القس أيضًا حضن البندقية ولم يعد يصلي راكعًا. أعتقد أنه هو أيضًا اشتم رائحة الدم. كانت ماريا تنام بجواري. أحكي لها حكايات عن

طيور النورس وعن البحر الذي لم أرَه قَطّ. كنت أرجوها لتأكل بعض ملاعق من «البولينتا» الحلوة التي طهتها المرأة السمينة ولكنها رفضت بعناد.

لم نعد نتحدث، لم نتحدث على الإطلاق، حتى عاد إيريش من المكان السري الذي فيه يترك أبناء العم المؤن. في ذلك اليوم، في شهر مايو، قالوا له إننا يمكننا النزول. فقد انتهت الحرب.

الجزء الثالث

المياه

الفصل الأول

نزلنا من الجبال ويدي قابضة على يد ماريا وقدماي ثابتتان في الأرض، تلك الأرض التي تصبح مع كل خطوة أكثر اخضرارًا وإضاءة من الشمس. تركنا خلفنا البرد والثلج الذي لا يزال يتساقط هناك في الأعلى، والأصدقاء في الحفرة. كان إيريش يسير أمامنا والقس يحمل بندقية المسن على كتفه. لم يعد ينبذها. في إحدى الليالي الأخيرة سمعته يتململ في نومه. فقد نفد سلامه، مثلنا جميعًا.

عندما وصلنا إلى الوادي العريض الذي منه تبدأ الطرقات، توقف القس، وقال:
ـ نحن سنذهب من هناك. سنستمر حتى ماليس.

حررت ماريا أصابعها الرفيعة من يدي ونظرت إليَّ للمرة الأخيرة بعينيها الشاردتين.

قال:

ـ ستبقى معي. ستتولى تنظيم الكنيسة وتضرب الأجراس. سأعتني بها.

رأيناهما يختفيان وسط الأشجار الكثيفة. ضوء غريب كان يمر بين الأوراق.

نزلنا في صمت أنا وإيريش، بمفردنا كما صعدنا. أمسكت يديه حتى ظهرت كورون. في نهاية الغابة نظرنا حولنا بريبة، مترددين حول وضع المسدسين في جيبينا أم الإمساك بهما وأصابعنا على الزناد. ابتعدت السحب وأصبحت السماء امتدادًا رتيبًا من اللون الأزرق الكثيف والضوء الساطع. كان الناس منتشرين في الطرقات وكأن الحرب كابوس انتهى مع طلوع النهار. بدا لي أنني أشتم رائحة الخبز الساخن.

عندما رأيت المنزل بدأت قدماي في الجري. أريد أن أفتح النوافذ على مصاريعها لأدخل الهواء، الذي لم يعد هواء الحرب. وعلى الباب التفتُّ لأنظر إلى البلدة. ترعى الماشية في وسط الوديان وعلى حدود الغابات تقف العربات التي تنقل التبن الجديد، تلك المعتادة. يحدق إيريش فيَّ بعينين حمراوين من التعب. كانت لحيته بيضاء وشائكة.

عثرنا على مايكل منكمشًا على المقعد وسيجارته مطفأة بين أصابعه. كان يبدو أنه يجلس في انتظار الموت. على الطاولة توجد كومة من بقايا الدخان،

وصورة صغيرة للفهرر، مدمرة ومكرمشة.

قال من دون أن ينظر إلينا:

ـ هل يجب أن أرحل؟

أمره إيريش:

ـ أبعد هذه الصورة من هنا.

سلمها لي مايكل وفي النهاية رفع رأسه.

قال مشيرًا إلى هتلر:

ـ لقد مات.

كان جلده مشدودًا وكتفاه متدليتين. وتفوح رائحة «سولار» من ملابسه.

ـ لم أستطع أن آتي لأرشدك إلى الطريق، لقد رحلوني في الليل.

قلت له:

ـ الآن اذهب لتبدل ملابسك.

وكان إيريش قد نام بالفعل، لم يخلع حتى ملابسه المتسخة. نام لمدة يومين كاملين. أما أنا فقد تخلصت من أعشاش العنكبوت المعلقة على زوايا الجدران، وتخلصت من الذباب الميت الملتصق بالزجاج وخرجت لأبتاع بالدَّين بعض الخبز والحليب. كنت أتوق جدًّا لبعض الحليب الساخن. ذهبت إلى مزرعتَي فلوريان ولودفيج لأسأل إذا كانا على قيد الحياة، وإذا كانت الماشية التي تركناها لهما ما زالت حية. وكان كل شيء، بطريقة معجزة، موجودًا.

جررت الأبقار والغنم إلى النافورة، ثم أخذتها إلى الإسطبل. طردت الفئران بضربات من المكنسة وذهبت لأحصل على بعض أكياس من التبن. وفي الطرقات يسير مشوهو الحرب. من فقد قدمًا ومن فقد ذراعًا، ومن جُرحت عينه، وجوههم غير معروفة. يتكئون على عكازات ويجبروننني على أن أشيح بوجهي في الناحية الأخرى، خجلًا من أنني نجوت. فقد سقط البعض منهم تحت القنابل، والبعض الآخر خلف الرشاشات، بينما أجلس أنا وإيريش أمام مدفأة المرأة السمينة. البعض أيضًا يحتفل وهو يشرب الجعة في الطريق. من

يتحدث عن أنه يرغب في سحق القلة التي ذهبت إلى «الرايخ» عام ١٩٣٩، والتي الآن، بعيون منكسرة وبلا جنسية، عادت إلى كورون. والبعض الآخر يسب في الحانة لأننا سنظل إيطاليين. لم يعد هناك وجود للإمبراطورية النمساوية، فالنازية لم تنقذنا. وحتى إذا انتهت الفاشية فلن نعود مرة أخرى كما كنا.

شعرت بالرغبة في أن أذهب لأحتضن مايا، وفي الوقت نفسه أن أظل مختبئة لأنني لم أعُد ترينا التي تعرفها. لقد أكلت الثلج لأروي عطشي، وأطلقت النار على ظهر أحدهم. استجمعت شجاعتي واتخذت ذلك الطريق المصنوع من الحصى الذي يتلوى بين الأعشاب الطويلة. طرقت باب مزرعتها.

قالت أمها من دون أن تعرفني:

ـ لقد رحلت العام الماضي، ذهبت لتُدرس في بافاريا.

أردت أن أرسل لها الخطابات التي كتبتها لها من الجبال، ولكنني احتفظت بها في النهاية. في بعض الأمسيات أعيد قراءتها كما كنت أفعل مع دفترِكِ، ثم في إحدى الليالي، التي جافاني فيها النوم، مزقتها مع تلك التي كتبتها لباربارا. لم تعد الكلمات قادرة على شيء أمام الجدران التي شيدها الصمت. فهي تتحدث فقط عما لم يعد له وجود، عما يُفضل ألا يبقى له أي أثر.

استعدنا حياتنا المعتادة التي كانت حياة قاسية. لم يكن لدينا سوى نصف دستة من الأغنام وثلاث بقرات. كان مايكل هو من يعولنا، حيث أعاد فتح ورشة أبي. جاءت نجاتنا مع الدمار الذي جلبته الحرب. الجميع كانوا بحاجة إلى طاولات ومقاعد وأثاث وأرائك. كان إيريش يمر ليساعده، وهكذا ذهبت أنا من جديد لأحرث البستان وأرعى الماشية في ذلك الصيف من عام ١٩٤٥. ووجدت نفسي مرة أخرى بمفردي في الحقول آكل خبزًا وجبنًا. أنظر إلى الأودية المترامية، والبقرات الكسول التي تمضغ العشب الذي صففته الرياح. أشعر بالخدر وكأن الثلج لا يزال تحت كعبي. وكأنني ما زلت أنام فوق أوراق الشجر الذابلة.

في المرعى يتجول كلب عجوز بشعر أحمر، يلحس يدَي ويرقد بجواري. أربت على ذيله، ومن حين إلى آخر أعطيه بعضًا من طعامي. يدور حول البقرات وكانت تطيعه. سميته «فليك» وقررت أن آخذه معي، جيد أن يكون لديَّ بعض من الصحبة.

في صباح أحد الأيام رأيتكِ بين الأشجار. كنتِ ما زلتِ طفلة. تركتُ الماشية للكلب وتبعتك، ناديتكِ ولكنك استمررت في السير بخطوة بطيئة وظهر مفرود. كنت ترتدين تيشرتًا وحافية القدمين. سارعتُ في ملاحقتك، كنتُ أتبعكِ، أجري وقد تقطعت أنفاسي وأنا أصيح باسمك. يضيع صوتي المتحشرج وسط حفيف الأغصان. على الرغم من أنك تسيرين ببطء فإن مسافة ظلت بيننا. جريت حتى تقطعت أنفاسي وارتعشت رجلاي، واستندت إلى إحدى الأشجار. ضربتها بقبضتَي، وأنا أصرخ بأن خطأك هو سبب شقائنا. انضمام مايكل إلى النازية، والرصاص الذي أطلقته على الألمان. أنت، وأنت فقط المُلامة على كل شيء. وابتعدتُ وأنا أقسم بأنني سأتخلص من لُعَبك، وبأنني سألقي بالدمية الخشبية التي صنعها لك أبي في نيران المدفأة.

الفصل الثاني

يوم الأحد يذهب إيريش إلى القداس. أحيانًا كنت أصحبه وكنا نجلس على الدكة الأخيرة، حيث كنت أجلس مع مايا وباربارا قبل ذلك بأعوام كثيرة.

في أحد الأيام قال لي:

ـ هيا اصعدي على الدراجة.

وبدَّل الدراجة حتى موقع السد.

كان فليك يتبعنا وعندما وصلنا أخذ يراقبنا ولسانه خارج فمه. كانت أصوات الصقور والهدير ونباح الكلاب مسموعة. غمر ضوء الشمس كل شيء فيما عدا الظلال الرفيعة للأشجار. أخذ إيريش يُدخن وبعينين ضيقتين يراقب الحاجز الصناعي والمناجم المهجورة والأكواخ القديمة بألواحها المكسورة، التي كانت يومًا ما مكتظة بالعمال.

قلت له:

ـ ربما كان الآخرون على حق، لم يستطيعوا بناءه.

ـ لقد حالفنا الحظ يا ترينا.

نظر أحدنا إلى الآخر وتنفسنا بعمق، ولم يعرف إيريش إذا كان عليه أن يحتضنني في وسط ذلك الحطام أو أن يظل منغلقًا في تحفظه.

قال وهو يشير إلى الرافعات وإلى أكوام التراب: ـ عندما يزيلون كل هذا، وعندما يسدون الحفر وأرى من جديد العشب ينمو، إذن يمكننا أن ننسى الموضوع بالفعل.

يومًا بعد الآخر تصل إلى مايكل في الورشة طلبيات أثاث، وكانت الأسعار المنخفضة تسرع من الدفع. وبدأت أنا أيضًا أخيرًا في التدريس ـ الآن في جنوب تيرولو توجد مدرستان، واحدة إيطالية والأخرى ألمانية ـ وجعلَنا راتب المدرسة، بالإضافة إلى ربح النجارة نعيش بطريقة أفضل.

كان إيريش يقول:

ـ بمجرد أن ندخر بعض النقود سأشتري بقرات جديدة، سأجعلها تحمل ثم ستكون لدينا حظيرة ممتلئة بالعجول. وسنرسل الحيوانات من جديد إلى المراعي الجبلية، وفي المعارض نبيعها بثمن جيد.

نحن أيضًا مثل الجميع، أنهكتنا الحرب وفي الوقت نفسه كنا ممتلئين بالرغبة في أن نحيا من جديد. في الأيام التي نشعر فيها بقوة أكثر، كنا نحب أن نتخيل أنفسنا في المنزل نستمع إلى الأمطار التي تضرب السقف ونحن في الدفء بالداخل نحكي حكايات أمام المدفأة الخزفية، بلا هموم.

حرص مايكل وإيريش على ألا يتبادلا الكلمات. كان مايكل لا يزال حزينًا على «الفهرر»، وفي تلك الأعوام ساعد العديد من ضباط الحزب على الحصول على جوازات يتمكنون بها من الهروب إلى جنوب أمريكا. كان إيريش قد رحب بعودته إلى المنزل من دون حوارات كثيرة، وكانا يأكلان ويعملان معًا، ولكن لم يستطع قَطُّ أن يستعيد محبته له. فالحياة مسألة معتقدات قبل أن تكون مشاعر.

في إحدى الأمسيات أحضر فتاة من جلورينزا معه. تعرف عليها لأن أباها أتى ليصلح بعض المقاعد. قالا إنهما يرغبان في الزواج. ستساعده في إدارة حسابات الورشة، كما كنت أفعل أنا في شبابي. كانت فتاة مهذبة، تطلب الإذن قبل التحدث وتبدأ كل عباراتها بقولها: «أظن». كانت تُدعى جوفانا.

قال مايكل:

ـ نريد أن نعيش في مزرعة جدِّي.

أجبته بسرعة:

ـ لا بد أن تسأل أمي.

فلم أكن أعرف إذا كانت ستفضل أن تعيش إلى الأبد في سوندريو مع بابي.

أومأ مايكل برأسه مؤيدًا، وبنبرة واثقة قال: ـ سأذهب لأبحث عنها. أنا أريد أن تحضر جدتي حفل الزواج.

اعتقدت أنه مجرد كلام، ولكن في أحد الأيام ذهب بالفعل إلى سوندريو وأخذني معه. توقفنا في إحدى الحانات لنأكل، وعاملني كملكة. كان يسكب لي النبيذ وإذا أجبته بأنه يُدير رأسي كان يضحك ويسكب لي المزيد. كان يبدو لي

خيالًا أنني هناك مع مايكل، جالسين أمام تلك المائدة الملتصقة بالجدار في حانة مجهولة، أسفل ظلال مصباح ما يخفت عندما يصل إلى جسدينا. أخذت أنظر إلى وجهه وعينيه اللامعتين الواسعتين اللتين تبدوان أنهما لفتى مشاكس. أخذنا نتحدث عن المذاق الطيب للحم وعن جمال المكان، ولكن أكثر من ذلك لم نعرف ماذا يقول أحدنا للآخر. ربما لأنه في أعقاب الحرب، لا بد لنا أن ندفن ـ مع الموتى ـ كل ذلك الذي رأيناه وفعلناه، وأن نهرب بأقصى سرعة قبل أن نصبح نحن أيضًا بدورنا حطامًا. قبل أن تصبح الأشباح معركتنا الأخيرة. كنت سعيدة بكلامنا هذا عن اللاشيء. في نهاية الأمر، حتى وإن كان مايكل قد أصبح أكثر السفاحين وحشية، لم أكن أعرف ماذا كنت سأفعل سوى الجلوس معه إلى هذه المائدة والاستمرار في تناول الطعام، وأن أقول له إنني أنا أيضًا قتلت.

قال وهو ينحي الصحن جانبًا:

ـ لم تغفري لي، أليس كذلك؟ أعرف أنك لا تصدقينني ولكنني بالفعل كنت سآتي لأقول لك على الطريق.

وأخذ يحرك، بخجل، قطعة الحلوى في الصحن.

لم أكن متأكدة من أنه كان صادقًا بالفعل، ولكن لم تعد الحقيقة مهمة. بل، كانت الشيء الأخير المهم. قلت له: ـ كنت خائفة من أن يؤذوك عندما يعرفون أننا هربنا.

ـ لم يفعلوا ذلك فقط لأنني تطوعت.

ذهبنا عندما أصبحت الحانة فارغة. وبينما تجري السيارة بسرعة سألني مايكل إذا كنت أتذكر عندما كان يجمع لي زهور الجنطيانا وهو صغير ويصنع منها باقات إلى حد أنني لم أكن أعرف أين أضعها. وفي الوقت نفسه أخذ يدلني على مواقع تفتيش الألمان وكم من الجنود ومعهم الرشاشات تمركزوا هناك حتى وقت قريب. حكى لي أيضًا عن الفدائيين الذين قُبض عليهم في غابات أودية كوماكيو وعن رفاقه الجنود الذين اغتالهم الفدائيون أمامه.

قال وهو يعض أسنانه:

ـ لم يرغبوا حتى في أن يعطونا أجساد أصدقائنا.

في ميدان جاريبالدي في سوندريو يوجد أناس كثيرون، وهناك أيضًا بدا أنهم لم يعودوا يفكرون في الحرب. إذا كان أبي لا يزال على قيد الحياة كان سيشعر، هو أيضًا، برياح السلام.

درنا بين المحال، يفتح مايكل الأبواب الزجاجية ويدفعني إلى الأمام ويدعني أتكلم. كنت أسأل بالإيطالية: «هل تعرفون أين تعيش عائلة بونته؟».

ولكن في سوندريو يوجد عدد لا نهائي من العائلات تحمل الاسم نفسه، وهكذا تجولنا بالساعات.

قلت وأنا أمسك ذراعه:

ـ ربما لا نستطيع العثور عليهم لأنهم ماتوا.

أجابني بضيق وهو ينظر إلى الأمام:

ـ لقد أصبحت مثل بابا، ترين فقط الأسود في الأشياء.

عندما توقفنا عن البحث بسبب الظلام، قال مايكل إنه ليس لدينا متسع من الوقت لنعود إلى كورون. وأخذني إلى مطعم آخر صغير ولكنني تناولت فقط فنجانًا من الحليب. تحدثنا مع صاحبه وشرحت له كيف يمكن ألا يعرف أي من أصحاب المحال في البلدة عائلة بونته تلك.

سألني:

ـ ما اسم زوجة أخيك؟

أجبته:

ـ إيرينه.

عقد جبهته، وكرر بينه وبين نفسه الاسم، ثم فجأة ضرب يده على منضدة البيع وقال إنه فهم: ـ إن عائلة بونته التي تبحثان عنها ذهبت إلى سويسرا. أعرف أفراد العائلة جيدًا، هربوا إلى لوجانو عام ١٩٤٤. لا أعتقد أنهم سيعودون.

أعطانا صاحب النزل حجرة، أنا ومايكل. لم تكن معنا أي بيجامات. كنت محرجة أن أنام على الفراش نفسه معه. عندما اضطجعنا اعتقدت أنه

سيحدثني عن جوفانا تلك التي يريد أن يتزوجها، التي رأيتها على عجل مرة واحدة، إلا أنه نام مثل صخرة بمجرد أن أطفأنا النور.

رحلنا في الفجر. عندما وصلنا إلى لوجانو كانت السماء الرمادية تنعكس على المياه المسطحة للبحيرة. في مبنى البلدية قالوا لنا أين يسكنون. كانت أمي، وابنة عمها تيريزا، وإيرينه وبابي وطفل صغير جدًّا جميعهم متكدسين في منزل في الضواحي. منزل صغير جدًّا، واجهته تملأها الشقوق. احتضنت أمي مايكل وقالت له وهي تضحك: ـ ظننت أنهم اغتالوك.

وصافحتني وكأننا تقابلنا اليوم السابق، وهي تربت بجهد على وجهي. كان بابي أكثر الآباء غرابة في العالم، وعندما يعطي الطفل ليأكل كان الأخير يبصق الطعام عليه بانتظام.

شربنا القهوة، القهوة الحقيقية، ليس قهوة الشعير ولا «الشيكوريا»، وبعد أن أعلن مايكل عن زواجه، تنحت بي أمي جانبًا، وقالت: ـ ترينا، أنا سأبقى هنا. أخوك يحتاج إلى كل يد مساعدة، ابنة عمي تعيش وحدها، وهنا يعم السلام. أنتم أيضًا ستحسنون صنيعًا إذا تركتم كورون.

لم تسألني عن أي شيء يخص الحياة في أكواخ الجبال، وإيريش الذي هرب من التجنيد، ولا عني أنا التي أطلقت النار على الألمان. كبرت أمي في السن، فقدت عيناها لونهما وأصبح وجهها مجعدًا مثل ورقة شجرة جافة. إلا أنها ما زالت قوية، تكافح حتى لا تسرق شدة الهموم أيامها.

كانت تقول عندما نذهب لنغسل الملابس في النهر أو في بعض الأمسيات ونحن جالسات نرقع الملابس حتى وقت متأخر: «الهموم مثل المخالب، دعيها وشأنها».

كانت كورون والمزرعة كل حياتها، إلا أن أمي تستطيع أن تفصل نفسها عن الذكريات، بل عن جذورها، لحظة قبل أن تسجنها. لم تكن تتوه قَطُّ، كما يفعل الكثير من المسنين، في حكايات الزمن البائد، وحتى عندما تتحدث عن أبي، بدلًا من أن تستعيد بعض اللحظات، يبدو وكأنها تلومه لأنه تسلل بعيدًا، متخليًا عنها، وأجبرها على أن تستمر في الحياة وحدها. كانت أمي امرأة حرة بالفعل.

حضر الزواج بعض أصدقاء مايكل، وقريبات جوفانا، وبعض الناس من المزارع الأخرى. تحدث إيريش طوال الغداء مع والد جوفانا. يقول عن مايكل إنه عنيد ولكن قلبه كبير. أكلنا في حانة كارل الذي طها حَملًا وفتح بعض الزجاجات

المعتقة. رقصت قريبات جوفانا بل جعلن أمي ترقص معهن الفالس. كانت عيناها تلمعان بدموع الفرح لفكرة أنها ستعطي مزرعتها للعروسين.

قالت وهي تمسك بيديهما:

ـ إذا لم تأخذاها أنتما، ستعشش فيها الفئران.

كان يمكنك رؤية كورون من نوافذ الحانة، ولم تبدُ لي قَطُّ بهذا الجمال. كنت أنا وإيريش مرة أخرى في الدفء، انتهت الحرب، ولم تقتل أحدًا من القلة التي لي. من الصعب قبول الأمر، ولكن أصبح كل شيء جزءًا من الماضي الآن. يجب فقط أن أتوقف عن التفكير بكِ.

الفصل الثالث

في أحد أيام يناير عام ١٩٤٦، كان الضباب المثلج يطفو في الهواء. في الشوارع تسير النساء في طريق العودة من السوق بمحاذاة الجدران واضعات أوشحتهن على أنوفهن. ترك الفلاحون محاريثهم في الحقول لينفخوا في أيديهم المضمومة، وهم يحسبون الساعات الباقية قبل الذهاب والجلوس أمام المدافئ. أحضر الخبر بائع فاكهة الذي قبل أن يرحل كان يشرب بعض الكؤوس في حانة كارل.

ارتدينا أحذية الجبل وجرينا لنرى. أخذ إيريش يسير وهو ينهج، وكنت أنا أحدق في الثلج. فقد عادوا إلى الحفر من جديد، وصلت العشرات من الجرارات، وكانت الرافعات تنقل بصخب التراب إلى الشاحنات، لتملأها إلى الحافة لتأخذها وتضعها في كومة أخذت ترتفع في لمح البصر. وأمامنا فُتحت هوة ساحقة. أكبر وأعمق هوة رأيتها في حياتي. أخذت الممهدات تسوي ضفة القناة. وبعيدًا بعض الشيء ظهر مئات العمال، لا أحد يدري من أين، يقيمون أكواخًا لتكون مخازن وورشًا، ومناطق للأكل وللنوم، ومكاتب ومعامل. في كل مكان يهتز الهواء بصخب المعدات وضجيج مواسير العادم. طلب مني إيريش أن أسأل أولئك الإيطاليين من أرسلهم، ومنذ متى استأنفوا العمل في الموقع. وبمجرد أن يقترب أحدهم كنت أسأله، ولكنهم يرفعون رؤوسهم ثم يعاودون الانحناء من دون أن يجيبوني.

بجوار موقع العمل كان هناك كوخ بابه مفتوح. تظهر طاولة وفوقها ملفات وأكوام من الأوراق.

قال رجل بالألمانية وقبعته تصل إلى عينيه، وأسنانه تعض على سيجارة:

ـ لا يمكنكم الدخول.

ـ هل استُؤنِف المشروع؟

رد ساخرًا:

ـ يبدو هذا.

أغلق الباب. أمرنا عسكريان بأن نبتعد وألا نتجاوز السور.

في طريقنا إلى المنزل، خفضت عينَي أكثر. إذا كانت الحكومة الإيطالية قد أرسلت العمال مرة أخرى ليبنوا السد، إذن ففي أحد الأيام سيعود «الدوتشي» والحرب وهتلر، وستعود حياة الهاربين ومعها الثلج تحت كعوبنا. في نهاية الأمر لا فائدة من خداعنا لأنفسنا بأنه يمكننا أن نترك الماضي خلفنا. قدرنا أن يصبح جرحًا لا يلتئم.

ذهب إيريش على الفور ليجول على المزارع. كان يحكي منفعلًا ما رآه. الهوة العميقة ومئات العمال، والعساكر الواقفون أمام الكوخ، والأعمدة الأسمنتية التي ترتفع. قال له الرجال أن ينسى الأمر، فلقد مر ثلاثون عامًا من دون أن يفعلوا أي شيء. فلتدع الرجال من إقليم أبروتزو يعملون كالعبيد وهم يضعون وينزعون الأنابيب، ودع القادمين من البندقية وكالابريا يضعون الأسوار وينزعونها إذا كانت تلك هوايتهم المفضلة. أجابه المسنون بأنهم كبروا في السن، وبأنهم متعبون، وبأنه الآن دور الشباب لأن يشمروا عن سواعدهم. ولكن الشباب، الباقين الموجودين، صرفوه وهم يقولون: «بل ذلك سيكون سببًا أدعى لنا لنرحل من هنا». عندئذٍ بحث إيريش عن النساء. ولكن حتى النساء هززن رؤوسهن، وهن يرددن أن الله لن يسمح بهذا، وأن الأب ألفريد سيحمينا، وأن كورون هي مقر الأسقف. واحد فقط، أحد العائدين من الحرب الذي لم يرَه أحد قَطُّ في الميدان، هو من أصغى إليه. وقال:

ـ إذا استمروا في بناء السد سنُخرج مسدساتنا التي أحضرناها معنا من الجبهة، سنزرع القنابل التي تعلمنا صنعها. فلتحذروا إذن يا سادة «مونتيكاتيني». فالبلدة الآن مملوءة بالأسلحة.

على العشاء تناول إيريش الطعام من دون أن يتحدث. وبينما يضع طبق الحساء على المائدة طلبت منه مرة أخرى أن نرحل بعيدًا عن هذا المكان الملعون، حيث يتتابع فقط الديكتاتوريون، الذي حتى في عدم وجود الحرب لن نعيش فيه أبدًا في سلام. نظر إليَّ عابسًا، بذقن مرفوع أشار إلى خارج النافذة، وكأن الأسباب التي استمرت في إبقائه هنا ملتصقًا كنبات اللبلاب، تستعصي عليَّ تقريبًا، بعد كل تلك الأعوام.

ألقى بنفسه على السرير منهكًا، وبيديه خلف عنقه أخذ يدخن وهو ينفث الدخان نحو السقف. جلست أنظر إليه مستندة إلى الجدار.

قال لي:

ـ علميني الإيطالية يا ترينا. لا أعرف الكلمات التي تساعدني لأجعل صوتي مسموعًا.

منذ ذلك اليوم، وفي كل مساء، بعد العشاء، نجلس إلى الطاولة، نكتب أفكارًا وقائمة كلمات، أقرأ له القصص تقريبًا مثلما كنت أقرأها لك، ومثلما كنت أحكيها لماريا. كنا نتحدث الإيطالية بالساعات. وعندما يعود من الحقول وأدعك له ظهره في حوض الاستحمام، يجتهد في أن يسر لي أفكاره بتلك اللغة. تعامل مع الدروس بجدية شديدة، إلى حد أنه إذا شردتُ منه للحظة يأمرني على الفور بأن أستأنف. أجمع قوائم من الأفعال والأسماء، وأغني له الأغاني التي كنت أستمع إليها عند باربارا، وأعلمه العبارات التي ينساها بالفعل في الصباح.

يقول لي وهو يضرب بقبضتيه على رجليه، ويضع رأسه يائسًا على الطاولة: «لم أعد أعرف كيف أتعلم».

كان يبدو كطفل مسن تسحقه هواجسه.

الفصل الرابع

في خلال أسابيع قليلة كان العمال يجلسون على ركبهم ممسكين بالحفارات، تحيط بهم سُحب من الأتربة، يحفرون الأنفاق ولم نعد نراهم وهم يتحركون بالقرب من أسلاك السور الحديدية. ومن الأنفاق استمرت الشاحنات تصل محملة بالحجارة، وأخرى تحمل الرمال الرطبة. صفوف من خلاطات الأسمنت تعجن الأسمنت المسلح الذي سيحوله البناؤون إلى كتل لبناء الحواجز، والدعائم والبوابات. يقف الرجل ذو القبعة من حين إلى آخر ليتحدث مع إيريش. يذهب ليقف بجواره، يشعل سيجارة وينظر نحو الجبال. كان إيطاليًّا ولكنه يتحدث الألمانية بطلاقة.

ـ صديقي، عد إلى زوجتك. سنبقى هنا لأعوام.

قال إيريش:

ـ أريدكم أن ترحلوا.

عندئذٍ ابتسم له الرجل ابتسامة خبيثة، ومن دون أن يرفع عينيه عن الجبال، نفخ بعض دوائر الدخان.

قال له متجهًا إلى الكوخ:

ـ تفضل إذا أردت.

في الداخل كانت تفوح رائحة التراب والحبر، الورق والقهوة.

أضاف:

ـ لتوقف تلك الأعمال تحتاج إلى دعم الأشخاص المهمين.

سأله إيريش وهو ينحني إلى الأمام: ـ من هم؟ من هم الأشخاص المهمون؟

نظر الرجل ذو القبعة حوله في الغرفة المغلقة. دعك رأس السيجارة في حجر المِطفأة، وبالدخان الذي لا يزال في حنجرته أجاب: ـ عُمد من قرى أخرى، حكومة روما، الأسقف، البابا.

واختتمِ وهو ينغم كلماته:

ـ لا بد أن تجعل كل السكان يتدخلون. فردًا فردًا.

عندئذٍ هز إيريش رأسه:

ـ يعتقدون أنكم حاولتم بالفعل مرات عديدة من دون الوصول إلى شيء. يعتمدون على القدر، ويتحدثون عن عناية الرب. الكثيرون لا يعرفون حتى أنكم عدتم.

عندئذٍ هز الرجل ذو القبعة كتفيه وأومأ بتعاطف. يعرف الناس جيدًا، فهو من لف العالم طوال حياته. يتشابه الناس في كل مكان، فهم متعطشون فقط للهدوء، سعداء بأنهم لا يرون. هكذا استطاعوا أن يهجِّروا بلدانًا أخرى، ويُفرغوا أحياءً، ويهدموا منازل ليمرروا أرصفة وطرقًا سريعة، ويلقوا حمائم من الأسمنت على الحقول، ويبنوا مصانع بطول مجاري الأنهار. ولا يتعرض عمله لأي أعطال لأنه يزدهر حيث توجد الثقة المطلقة بالقدر، والإيمان بالله الذي يعفيهم من المسؤولية، وعدم مبالاة الرجال العطشين فقط إلى الهدوء. كل هذا يسمح له بأن يجلس ليُدخن سيجارة في كوخه في حين يصل العمال السُّذج المجندون في مدينة بعيدة على قطارات الجوع لينحنوا كالعبيد تحت الأمطار، ليموتوا من السيليكون في الأنفاق تحت الأرض. كانت لعبته دائمًا سهلة في مهنته الطويلة، ليدمر الميادين القديمة منذ قرون والمنازل التي تركها الآباء للأبناء، والجدران التي تسمع الأسرار بين الرجل وزوجته.

قال له في النهاية:

ـ ما زال لديك وقت. ولكن بمجرد أن نصل بالقرب من البيوت يصبح السد جاهزًا بعد أيام قليلة. وسيكون أكبر سد في أوروبا.

عاد أيضًا المهندسان ذَوا السترتين ورباطي العنق، المهندسان ذاتهما اللذان، قبل الحرب، دفعا ثمن المشروبات للفلاحين. أتيا ومعهما بعض السويسريين. انتشرت شائعة في البلدة أن السويسريين أيضًا خلف بناء السد. وأن مقاولين من زيورخ أقرضوا عشرات من الملايين لـ«مونتيكاتيني» ليحصلوا مقابلها على الطاقة مع الفوائد. عندئذٍ بدأ الناس يتمتمون في البلدة أنه لا بد إذن من توخي الحذر. فالسويسريون أناس جادون وخطرون، فهم ليسوا مثل النصابين الإيطاليين. وهكذا أخيرًا تبع بعضهم إيريش إلى موقع البناء ورأوا تراكم الحجارة والأتربة مرتفعًا ثلاثين مترًا، ورأوا الشاحنات تتحرك، ومعها فرق الهدم التي تحفر الصخر والخلاطات التي تخلط الأسمنت، والعمال الذين يضعون التوربينات وهم يتحدثون بلهجتهم غير المفهومة، ويخرجون من الأنفاق وكأنهم سناجب تخرج من تجويفات جذوع الأشجارِ. مكث الفلاحون بعيون

متحجرة وشفاه مهدلة وهم ينظرون إلى الحُفر. وأياديهم على آذانهم حتى لا يسمعوا تلك الضوضاء التي لم يسمعوها قَطّ.

يومًا بعد يوم بدأت الهوة تتسع وكأنها بقعة زيت. أخذت الحفارات والشاحنات تتسلق فوق جبال الرمل، وتبدو دائمًا وكأنها على وشك أن تنقلب. أصبح العمال كالنمل العامل الذي يختلط في الضوء الشاحب لشمس الشتاء. لم يعد هناك وجود للحقول. واختفت المساحات الخضراء. أخذت الأرض تتقيأ حجارة فقط، وتُظهر فقط حجرها الأزرق المسحوق، لم تعد تبدو الأرض نفسها التي عليها نمت أشجار «اللاركس» وبخور مريم، التي عليها رعت، في سلام، الأبقار والأغنام. دُفن هدوء الجبال تحت الصخب المستمر للآلات التي لا تتوقف أبدًا. لا في المساء ولا في الليل.

في صباح أحد الأيام استطاع إيريش أن يجمع قرابة عشرة رجال. أحاطوا بكوخ الرجل ذي القبعة، أخذوا يدبون بأقدامهم ويصيحون. خرج الرجل ذو القبعة، يحيط به العساكر. تقابل مع نظرة إيريش ورفع جانبًا من شفته في ابتسامة ساخرة. أطلعهم على خريطة ريزيا وكورون، وعليها كانت هناك صلبان حمراء على الزوايا. كانت ورقة كبيرة وللإمساك بها كان لا بد من فرد الأذرع. مررها لأحد الفلاحين وهو يُفهمه بإشارة أنه يمكنه أن يطلع الآخرين عليها. تعرف البعض على خريطة القرية، وعلى الغابات وعلى بدايات المدقات الجبلية. وصنع البعض تعبيرات بوجهه تنم عن عدم الفهم، ومرروها بسرعة على من يجاورهم. عندما عادت الخريطة في يد الرجل ذي القبعة شرح بأن السد سيُبنى بداخل تلك الصلبان الحمراء، ولكن يلزم ذلك عمل لوقت طويل، والأمر يتطلب مراجعات مستمرة، وموافقات، وتمويل، ولن يمس القرية لوقت طويل. ولم يكن من المستبعد أن يصل إليهم أمر بأن يتوقف العمل مرة أخرى.

واختتم:

ـ للوصول إلى المنطقة السكنية لا بد أن نحفر لوقت طويل آخر.

سأله أحدهم:

ـ وكم سيرتفع مستوى المياه؟

ـ خمسة أو ربما عشرة أمتار.

تبادل الفلاحون نظرات خاطفة. بذلك الارتفاع يمكن لريزيا وكورون أن تنجوَا.

ـ إذن لن تُغرقوا البلدة؟

ـ لم يقل أحد قَطُّ إننا سنغرقها.

بمجرد أن دخل الرجل ذو القبعة، أمر العساكر الفلاحين بالانصراف. وعندما أُغلق باب الكوخ، اتخذ الفلاحون طريق العودة وهم يجرون أقدامهم في الوحل. وعلى جبل الأورتليس لم يتمكن ما تبقى من الشمس أن يجفف الأرض.

ـ قال رئيس الموقع: «سيستلزم الأمر أعوامًا قبل أن يصلوا إلى البلدة».

ـ من يدري ماذا يمكن أن يحدث في ذلك الوقت.

ـ ربما سيعود هتلر وموسوليني.

ـ يقولون إنهما لم يموتا، ولكنهما مختبئان فقط لينظما أمورهما كما ينبغي لهما.

ـ ربما لن نصبح ألمانًا أو إيطاليين، ولكن روسًا أيضًا إذا استمر الشيوعيون في الانتشار.

ـ أو ربما أمريكان، إذا لم يتوسع الشيوعيون.

ـ ويا ليتنا نتحدث الأمريكية مع الأمريكان، ونتوقف عن تحدث الألمانية والإيطالية.

ـ وبدلًا من السد سيبني الأمريكان ناطحات سحاب.

ـ لقد قال إنهم لن يغرقوا كورون.

ـ قال إنه لا يعرف.

ـ أنا أشعر بالخوف على أي حال.

ـ لا داعي لذلك.

هكذا أخذ الفلاحون يتحدثون بينما يجرون أقدامهم في الوحل.

حين وصل عدد العمال إلى الآلاف ـ صبية لون بشرتهم زيتوني، تقريبًا دائمًا ممتلئو الجسم وشعورهم سوداء قاتمة، رجال جوعى، يتركون عائلاتهم على بعد آلاف الكيلومترات، فاشيون سابقون وجنود سُرِّحوا من كل أنحاء إيطاليا ـ رحل شبابنا إلى الشمال. أثناء الحرب بعض منهم هرب إلى ألمانيا والبعض الآخر اختبأ في سويسرا وآخرون أيضًا ظلوا مسجونين في معتقلات ستالين، جميعهم اتخذوا طرقًا لن تعيدهم أبدًا إلى وادي فينوستا.

أيام السبت ظلت الأمهات تأتي إلى منزلي، واحدة تلو الأخرى، لأقرأ لهن الخطابات، ولكنني الآن لم أعد قادرة على الكذب. يكتب الأبناء أنهم لا يرغبون في العودة إلى كورون، حيث لا توجد سوى الأبقار والفلاحين، ولا توجد إمكانية لتغيير الحياة. عندما تسمع الأمهات تلك الكلمات، يغطين وجوههن بأياديهن ولكنهن يقلن أيضًا إن هذا حقيقي، فكورون بلدة على هامش الزمن، والحياة فيها متحجرة.

في أحد الأيام قال الرجل ذو القبعة لإيريش: ـ ليس لديكم رجال في البلدة. ومن المسنين لا يمكن توقع أي خير على الإطلاق.

الفصل الخامس

يقضي إيريش، وفليك بجواره، الأيام وسيجارته في فمه، يراقب الشاحنات التي تتحرك ذهابًا وإيابًا، مُحملة حتى آخرها بالتراب. يشاهد مدهوشًا العمال وهم يبنون درجات ليصنعوا مداخل تحت الأرض ليُدخلوا فيها آلات غريبة. «ذلك السد لن يكون قادرًا على إغراق كورون»، «إن نهر كارلينو ليس إلا فرعًا صغيرًا من نهر الأديجه، جدول صغير»، «إذا كانوا يأملون في ملء خزان سعته عشرة أمتار من تلك الكمية الصغيرة من المياه، فإنهم بالتأكيد لا يجيدون الحساب». هكذا يردد من يتبعون إيريش إلى موقع العمل. بينما يظهر آخرون على الباب ويسألونه ماذا يمكن عمله لإيقاف أولئك الأوغاد الذين قرروا أن يدمرونا. ويعج المنزل بحركة مستمرة.

يقدم إيريش أكواب «الجرابَّا» ويردد كلمات الرجل ذي القبعة: «لا بد من الكتابة، لن تكفي المتاريس. لا بد أن نطلب المساعدة من الأشخاص المهمين».

فيقول الفلاحون وهم يفتحون أياديهم: «ولكننا لا نعرف أشخاصًا مهمين، بل إننا لا نعرف حتى أن نكتب».

يجيبهم: «يمكن للأب ألفريد أن يكتب، يمكن لترينا أن تكتب».

عندئذٍ يستدير الفلاحون لينظروا إليَّ ثم يخفضون شفاههم ويومئون بالموافقة: «سنكتب لعُمد البلاد المجاورة، وللصحف الإيطالية والساسة في روما!».

يتدخل أحدهم: «لا بد من أن نكتب لدي جاسبري، فقد وُلد في مقاطعة ترينتيو، في زمن الإمبراطورية!».

يسأل آخرون: «ونحن ماذا نفعل؟».

«نستمر في الذهاب إلى موقع البناء، يجب أن يعرفوا أننا نراقبهم. حتى في سويسرا والنمسا، على بعد بضعة كيلومترات من هنا، يرغبون في بناء السدود، ولكنهم تنازلوا عن ذلك حيثما وُجدت معارضة من السكان».

كان هذا الحماس يهدئه، كان ينسى أن يأكل ويطفئ السيجارة قبل أن يذهب إلى النوم، ويقبلني على رأسي عندما أنظر إليه بضيق إذا عاد في وقت متأخر.

وكّلت بلدية كورون محاميًا من بلدة سيلاندرو. قال المحامي إن كتابة خطاب لدي جاسبري فكرة جيدة، ولكن قبلها لا بد أن نحصل من الوزارة على إعادة فحص المشروع.

سأله إيريش:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل؟

رفع المحامي كتفيه:

ـ لا يمكنك أن تفعل أي شيء، إنها مسألة سياسية.

يخرج إيريش من اللقاءات مع المحامي في أسوأ حالة مزاجية. ولكي يتخلص من الضيق كان يذهب إلى الأب ألفريد، وإذا لم يجد أحدًا في الكنيسة كان يبدأ بالتحدث معه جالسًا على المقعد. كان يعترف له بالشكوك التي لم يكن يقصها حتى عليَّ. في بعض الأيام كنت أحسده على إيمانه، وفي بعضها الآخر أشعر بالخوف من أن يشعر بالخذلان حتى من الله.

أقول له:

ـ أستغرب رؤيتك كثيرًا هكذا في الكنيسة، في البداية لم تكن تذهب إليها قَطُّ.

ـ من الذي دافع عن لغتنا عندما كان الفاشيون يسحقونها ويفرضون مدارسهم علينا؟ من بقي ليدافع عن جنوب تيرولو؟ الساسة وإيطاليا والنمسا غسلوا أياديهم منا، لم يقف معنا أحد سوى الكنيسة.

كان الأب ألفريد قلقًا من السد أيضًا، وقال إنه بمجرد أن يمر أسقف بريسانونه على هذه الأرجاء سيتحدث معه.

ترجاه إيريش:

ـ اكتب له الآن! لم يعد في إمكاننا الانتظار!

ولكي يرضيه كتب الأب ألفريد إلى الأسقف. ووصل الأسقف خلال بضعة أسابيع. بدا في تلك الأيام أن الكلمات يمكنها أن تنقل الجبال. وأن الخطأ الأعظم هو ألا نُسائلها، وألا نبحث عنها وألا نجعلها تتحدث أولًا. الكلمات.

وانهمك إيريش ومعه شخص آخر وبعض المُكرَّسات(4) في إزالة الأتربة عن النوافذ وتلميع أثاث الكنيسة. في ذلك الأحد احتشد الناس في ساحة الكنيسة مثلما يفعلون عادةً عند قدوم الأسقف. أما أنا وإيريش فجلسنا في الصف الأول من المقاعد. كنا نتوقع كثيرًا من الكلمات من ذلك الرجل الضخم، ذي الوجه الجامد الذي يدفعك إلى خفض نظرك أمامه. إلا أن الأسقف أقام القداس كأنه ليس لدينا كاهن في البلدة ولم نسمع قداسًا منذ أعوام. فلقد جعلنا نصلي جلوسًا وقيامًا، بالألمانية واللاتينية، وعندما جاءت لحظة العِظة تحدث فقط بحماس عن الأبدية، وكيف يمكن أن تكون رهيبة أو رائعة. فقط في النهاية قال: ـ هذه البلدة مُهددة بمشروع خطير. سأكتب إلى البابا لأطلعه على ما يحدث. وقلبه المقدس سيساعدنا بالتأكيد، إذا كنا نستحق هذا.

في ذلك المساء نفسه قال الرجل ذو القبعة لإيريش إنهم قرروا أن يرفعوا مستوى المياه إلى خمسة عشر مترًا.

عندما عاد كنت بالفعل في الفراش. اضطجع بجواري ووضع يده على بطني. لم نعد نمارس الحب الآن. أطلعه الرجل ذو القبعة على موقع البناء وأدخله إلى الأنفاق حيث يدخل العمال الآن بعربات الديزل ويخرجون وقد غطت وجوههم أقنعة سوداء، وكأنهم دهنوا جلدهم بالفحم. أخذ إيريش يحكي لي كيف أن هناك بالداخل لا يوجد هواء، وأن الأتربة تجعل هؤلاء العمال المساكين يبصقون باستمرار، وأنهم يخرجون بالتناوب لاستنشاق الهواء.

ثم علق مستنكرًا:

ـ إنه عمل عبيد.

ووصف لي العمال وقد ازرقَّت وجوههم وهم منحنون ينقبون الأرض ويلصقون البلاطات بالأسمنت التي في يوم ما ستمر عليها القوة الجارفة للمياه.

واستمر تدفق العمال. وبطوال الطرق نتقابل مع صفوف لا نهائية لرجال يصعدون نحو القرية وأجولتهم تتدلى من بين أكتافهم. كانوا يبدون كحشود من البرابرة، يعيشون معسكرِين في الأكواخ الممتدة على طوال خمسة وعشرين مترًا، حيث توجد فقط أسِرة ذات طابقين مغطاة ببعض القش وفي منتصفها مدفأة تدفئ بصعوبة. كانت الأكواخ نفسها المستخدمة في معسكرات السجون. قال الرجل ذو القبعة لإيريش إن عددهم وصل الآن إلى بضعة آلاف، موزعة في مواقع العمل هنا حولنا. بلدات مثل بلدتنا تطل على البحيرة أو على ضفاف الأديجه، أو على أحد مجاريه، ولكن بخلاف ريزيا وكورون، لن تغمرها المياه.

قال وهو يضغط على أسنانه ويجذب الغطاء فوقه: ـ الآن أدركت المصانع أنها اللحظة المناسبة لجمع الذهب الأبيض وأكوام من الأموال.

لم أكن أعرف ماذا أقول له. كنت متعبة من التحدث عن معاركه. لم يعد يهمني شيء يخص السد.

سألني:

ـ ماذا بكِ؟

أجبته وأنا أدير ظهري له: ـ لا شيء.

ـ لماذا لا تتحدثين معي؟

ـ ليس لديَّ شيء لأقوله لك.

جلس ساكنًا ويداه على صدره.

سألته فجأة: ـ ألا تزال تفكر في ماريكا؟

قال:

ـ أفكر فيها من دون أن أفكر.

ـ ما معنى هذا؟

ـ لا أعرف كيف أشرح لك هذا بطريقة أخرى. أفكر فيها من دون أن أفكر.

ـ أنا عندما أنشغل عن التفكير فيها أشعر بالذنب. أما أنت فقد انشغلت بكل ذلك الذي يحدث حتى نسيتها.

ـ لا بد أن تستمر الحياة يا ترينا.

ـ أنت لا تُعاني الأمر.

أجابني:

ـ تتحدثين كالحمقاء.

كررت بعناد:

ـ أنت لا تعاني الأمر.

عندئذٍ التفت فجأة، وأمسك بذقني بين يديه، واقترب جدًّا من وجهي حتى شعرت بأنفاسه، ورد بحدة: ـ لقد كبرَت الآن، وإذا كانت تريد العودة لفعلت هذا!

بقيتُ كالمشلولة تحت الملاءة. سمعت صدى كلماته يتردد في الصمت الرطب للغرفة. أخذ ينظر إليَّ يملأه الغضب، ثم ترك ذقني وكأنه يلقي بشيء ما. انكمش وهو يعطيني ظهره من جديد. ولأول مرة يساورني الشك بأنه يعطيني ظهره لكيلا أرى بكاءه. وعندما كنت على وشك النوم سمعته يفتح درج الكومودينو. أخرج منه دفترًا صغيرًا، في وسطه قلم رصاص مبري بالسكين، وأخذ يتصفحه في الظلام. أضأت المصباح فأوضح الضوء رسومات. كنتِ أنتِ.

حاولت أن آخذ ذلك الدفتر ولكنه أمسك برسغي. لم يرغب في أن ألمسه. يرسم جيدًا، كانت خطوطه خفيفة، ولكنه ضغط أكثر على العينين والفم. في بعض الصفحات توجد فقط يداكِ. وعلى صفحة يوجد حذاؤك ذو العقدة الذي ابتعته في مناولتك الأولى. وعلى أخرى تجلسين إلى الطاولة بظهرك وتحلين واجباتك. وعلى صفحة أخرى أصفف شعرك. يظهر شعرك فيها طويلًا مثلما كان عندما دخلت المدرسة.

لم أكن أعرف أنه يرسم. لم أكن أعرف شيئًا عن الدفتر المُخبأ خلف الجوارب. لم أكن أعرف جيدًا ماذا يفعل طوال الوقت الذي يقضيه في الخارج. بعد كل تلك الأعوام لم أكن أعرف عنه شيئًا تقريبًا.

الفصل السادس

سُمع صوت انفجار، مثل ذلك الذي يتسبب في الانهيارات الجليدية. كنتُ في المدرسة ولوهلة، سواء أنا أم الأطفال، نظرنا متسمرين من النافذة. حاولت أن أستكمل الدرس. عندما خرجت وجدت مجموعة من الناس في الطرقات تتحدث عن السد وتقول بحماس إنه وقع حادث هناك. أنابيب من الخراسانة سقطت في الهوة وحطمت الأسوار، وقلبت الجرافة وقتلت شخصًا. اتجهت نحو موقع البناء، أخذت أجري متقطعة الأنفاس والعرق يبلل ظهري. إذا كان إيريش قد مات سأهرب مرة أخرى إلى الجبال وسأنتظر الذئاب. سأجري نحو مغارة الجنديين الألمانيين وسواء بقي لي القليل أو الكثير من الزمن، سأنظر من بعيد إلى قمة هذه البلدة التي بدأت باحتقارها، بالفلاحين الذين لا يرون أبعد من أنوفهم، وبأولئك الأوباش الذين غزوها ويخدعوننا بكل صفاقة. إذا كان هذا هو السلام فقد كنت في وضع أفضل والثلج تحت كاحلي والجوع يستهلكني. ومع كابوس النازيين الذين يكسرون علينا الباب.

جريت لعدة ساعات وقد تسارعت أنفاسي، وقلبي يدق متسارعًا. صرخت باسمه بين الأشجار حتى فقدت صوتي. وفي موقع العمل لم يكن هناك أحد. كانت الهوة مهجورة. يمكن رؤية علامات الأنابيب التي لا بد قد سقطت بعنف بعد أن انفلتت سرعتها. وفي الهوة يوجد حطام الجرافة والأحواض التي فيها يخلطون الطين، بتراب الصلصال، مقلوبة. يدور بعض العمال حوله، مثل حشرة حول قطعة من الخبز. ساد صمت الموت الذي يُسمع منه صوت حفيف الريح على الأرض الجرداء. عدت إلى الوراء ثم مرة أخرى نحو موقع البناء، ثم مرة أخرى إلى الوراء، وفي النهاية لم أعد أعرف إلى أين أذهب. وعلى بُعد خطوات مني تبدأ الغابة. الشمس على وشك المغيب ولم أعد أعرف المدقات مثل السابق. لم أعد أعرف الأودية والبلدة والطرقات مثلما كنت أحفظها في الذاكرة. أخذت أدور بين صفوف أشجار الصنوبر عندما سمعت أحدهم ينادي اسمي. التفت ورأيته قادمًا نحوي، وهو يركل الحجارة التي تصل عند قدميه.

سألته بلا أنفاس:

ـ هل أنت بخير؟

ـ المرة القادمة انتظريني في البيت.

ـ ماذا حدث؟

ـ سقطت أنابيب الخراسانة من فوق شاحنة وانحدرت نحو الحفرة.

ـ هل مات أحد العمال حقًّا؟

ـ أكثر من واحد. ومات أيضًا أحد العساكر.

عدنا إلى البلدة ومن بعيد رأينا بعض الفلاحين قادمين نحونا. كان الوقت مساءً بالفعل عندما تجمع أمام حانة كارل عدد من السكارى الذين شربوا في صحة السد، وحكومة إيطاليا وشركة «مونتيكاتيني» ومن مات من العمال والعساكر.

سأل ابن بائع الفاكهة بنبرة استفزازية: ـ الآن وقد مات البعض منهم سيوقفون الأعمال، أليس كذلك يا إيريش هاوزر؟

أجابه:

ـ لا أعرف.

ـ أجل سيوقفونها.

قال آخر:

ـ لقد أوقفوها بالفعل.

قال آخر أيضًا:

ـ قلت لك إنهم لن يبنوه أبدًا.

أومأ الجميع برؤوسهم موافقين.

أوقفوا الأعمال بالفعل. بقي العمال في الأكواخ في مواجهة السد، جالسين على صناديق خشبية يدخنون ويبعدون الناموس. يمررون الشراب فيما بينهم ويقضمون قطعًا من الخبز بأفواه متكاسلة. حتى بالنظر إليهم بنظرات تحدٍّ لم يؤثر في شيء. كانوا بهائم أكثر من فلاحين، يمكن أن ترى من عيونهم المطفأة من التراب الذي دخل أيضًا في مخهم وأعاقهم إلى الأبد. بالنسبة إليهم بناء السد مثله مثل الجلوس للتدخين. ينتظرون أجر يوم السبت، عندما يقفون صفًّا أمام كوخ الرجل ذي القبعة ويخرجون وقد وضعوا النقود في جيوبهم. لم يكن يهمهم أمرنا نحن، في كورون، أو في الوادي. يفكرون فقط في تنفيذ الأوامر وبصق الأتربة التي ستؤدي إلى حتفهم. في الليل بلا شك

يحلمون ببلادهم البعيدة وبزوجاتهم اللاتي سيمارسون الحب معهن بمجرد عودتهم إلى المنزل.

أتت فرقة صغيرة لجنازة العسكري. نُقل التابوت الملفوف بعلمٍ إيطالي، بعد القداس، على عربة لامعة اتخذت الطريق نحو ميرانو. ولكنهم أرسلوا العمال إلى مكان ما حتى تتعجل شركة «مونتيكاتيني» التحقيقات.

المحققون الذين وصلوا من روما استنتجوا ما حدث وكتبوا محضرًا بالحادث، ولكن في ذلك الوقت نقل الرجل ذو القبعة العمال قرب طريق فالّيلونجا، منطقة مسطحة أكثر بالقرب من كورون. وبدأ يُقيم أكواخًا هناك، منازل صغيرة جاهزة الصنع.

قال إيريش:

ـ لا تتوقفون حتى احترامًا للموتى؟

فتح الرجل ذو القبعة يديه وقلب شفتيه لأسفل.

ـ وما فائدة تلك الأكواخ؟ هل تريدون حبسنا هنا في الداخل؟

أجاب:

ـ إذا لم توقف الحكومة أعمال البناء، ستكون هذه المساكن المؤقتة لمن يرغب بعد في البقاء هنا.

ـ هل قررتم رفع مستوى المياه أكثر؟

ـ ستصل إلى واحد وعشرين مترًا.

ـ أعلى من مستوى البلدة.

كرر هو:

ـ أعلى من مستوى البلدة.

اعترض إيريش بصوت ضعيف:

ـ ولكن على الورقة المعلقة على جدار البلدية مكتوب أنكم سترفعونها فقط لخمسة!

ـ مكتوب أيضًا:

مع احتمال حدوث تعديلات على المشروع المذكور.

يومًا بعد يوم أخذت تبرز مجموعات من المنازل جاهزة الصنع، تبدو وكأنها صناديق موضوعة في صف منظم. يذهب الفلاحون في الليل لمراقبتها، ولكن سرعان ما نظم العساكر ورديات حراسة ولم يدعوا أحدًا يقترب. في إحدى الليالي استطاع الجندي السابق الذي أراد وضع القنابل في الموقع، ومعه اثنان آخران، أن يدخلوا إلى أحد تلك الأكواخ. ربما أرادوا أن يفجروها، أو ربما بدافع من الفضول. دفعت هبة رياح الأبواب، وقبض عليهم العساكر متلبسين. وضعوهم في سجن جلورينزا يومين ثم أفرجوا عنهم يوم الأحد، أمام الجمع الخارج من الكنيسة. عندما اقترب إيريش ليصافحهم أخذوا يدفعونه وهددوه بأن يرحل، وكأنه هو من ألقى القبض عليهم. انضم إليهم رجال آخرون، وفي جوقة أخذوا يرددون: ـ ارحل بعيدًا! كفاك يا إيريش هاوزر! اتركنا في سلام.

لحقت بإيريش ولكن من دون أن يقول لي أي شيء اتخذ طريقه إلى المنزل. وبينما أتبعه عادت إلى ذهني باربارا، التي لم توجه إليَّ كلمة واحدة قبل أن تهاجر إلى ألمانيا. بدت لي حياتنا كلها كغلطة.

في أحد الأيام وبينما أجلس أمام النافذة وأتخيل كيف سنعيش في تلك الكبسولات الشاحبة شعرت برغبة فجائية في أن أكتب. جلست أمام الطاولة وحدقت في ورقة بيضاء. كتبت أن المؤسسات الصناعية تعامل كورون والوادي وكأنها مكان بلا تاريخ. إلا أننا لنا مزارعنا ومواشينا وقبل أن يصل جيش الأشقياء وحشود المهندسين تلك، كان التناغم يسود بين المزارع والغابة والمراعي والطرقات. كانت أرضًا غنية يملأها السلام، سلامنا. التضحية بكل هذا من أجل سد هو ببساطة أمر وحشي. يمكن بناء أي سد في أي مكان. وختمت، فبمجرد اقتحام الطبيعة لا يمكن إحياؤها مرة أخرى. في المساء قرأت تلك الصفحة لإيريش وقبَّل رأسي. قال إنه تكونت لجنة عمل للدفاع عن الوادي وكانوا يتناقشون لماذا تهملنا الصحف بهذه الطريقة، ثم صاح بغضب: ـ الصحف الإيطالية التي لا بد أن تهتم بالأشياء التي تحدث في إيطاليا، إيطاليا تلك التي يريدون جميعهم أن ننتمي إليها بأي ثمن.

قرأتها له من جديد، فقال إيريش: ـ سنرسل هذه أيضًا.

ـ أجل، ولكن ليس باسمي، وقعها أنت.

سرعان ما نسيت تلك الكلمات. ولم أسأل إيريش أين ذهبت ولا ماذا يحدث في اللجنة. استمر هو في السهر في مناقشات مع الأب ألفريد ومع العمدة، ومع القلة من الفلاحين الذين يهتمون بتلك القصة، ولكنني لم أكن أرغب في أن أتحدث عن هذا، فالفوضى شديدة، وخلط في كثير من الأوراق مرة بعد الأخرى، يفقدنا النعاس. عندما يأتي أحدهم ويجلس أمام مدفأة البيت ليتحدث مع إيريش عما يحدث في موقع البناء، أحبس نفسي في حجرتي. أشعر باستسلام وبلامبالاة تشبه تلك التي للفلاحين وزوجاتهم. كانوا على حق. لا يمكن أن نقضي الوقت كله في التفكير في السد، سنخاطر بأن يجن جنوننا. متابعة موقع العمل عمل جدير بهرقليز، وهو ما يمكن لإيريش هاوزر فقط حمله على كتفيه. ثم إن المحامي كان بطيئًا ولم يرسل قَطُّ الخطاب إلى دي جاسبري. ثم كون دي جاسبري قد وُلد في زمن الإمبراطورية النمساوية-المجرية، فلن يهمه شيء، وربما لا يعلم حتى أن لكورون وجودًا. ربما كان فال فينوستا هو اسم يربطه بالعطلات الصيفية وليس أكثر من ذلك. أتفاعل فقط عندما يطلب مني إيريش أن أكتب مقالًا إلى الصحف التي تكتب باللغة الألمانية، نظرًا إلى أن تلك الإيطالية لم تكن تتحدث قَطُّ عنا أو كانت تُدعم أسباب شركة «مونتيكاتيني»، داعين إلى التطور الذي لا بد أن نتأقلم معه الذي لا بد أن نشعر بأننا جزء منه حتى وإن كان هذا يعني دمارنا. لا أدري كيف تمكنت من هذا، ولكن بمجرد أن يضع الورقة أمامي تنساب الكلمات وحدها. تجسد الغضب الذي لم أكن أعرف أنني أشعر به. وبالأفكار المضطربة التي تدور في ذهني لم يهمني أن أوجه كلماتي إلى الأسقف أو رئيس «مونتيكاتيني» أو وزير الزراعة الذي بأحد خطاباتي دعته اللجنة إلى البلدة ليرى الانتهاك الذي سيحدث بإغراق هذا الوادي.

بعد بضعة شهور حضر بالفعل الوزير أنطونيو سيني، واحتفظ طوال الوقت بالخطاب في جيب سترته. مر على بلدة سلوديرنو وبلدات أخرى قريبة. توقف في كورون لينظر إلى المراعي والحقول والفلاحين الذين يعملون، وقال وهو شارد إن القائمين على «مونتيكاتيني» لفقوا كذبات كثيرة. فقد أقسموا له أننا مجرد قرية شاحبة، تسكنها قلة من السكان وليست بلدة مزدهرة. كان الأب ألفريد يقف بجواره ولم يتوقف عن أن يردد له بإيطاليته الضعيفة أن ما يرتكبونه هنا جريمة ستلطخهم. فجأة ابتعد الوزير بضعة أمتار وأعطانا ظهره ووضع إحدى يديه على عينيه. ثم التفت نحونا وبدأ يتحدث بنبرة من على وشك أن يعطي وعدًا مهيبًا. وبعد أن نطق سيني ببعض العبارات، سارع مستشاره وأمسكه من ذراعه وهز رأسه ودعاه لأن يلتزم الصمت. وتحدث هو بدلًا منه، وهو يضع إحدى يديه على كتف الأب ألفريد: ـ سيهتم الوزير بأمركم، ولكن لا

يمكننا أن نضمن، في هذه المرحلة، أننا سننجح في إيقاف الأعمال. كل ما يمكننا عمله، إذا لم يحالفنا الحظ واستُكمِل العمل، هو أننا سنضمن لكم مبلغًا يعوضكم بشكل مناسب عن خسارتكم.

الفصل السابع

في أحد أيام شهر مارس دعونا فردًا فردًا إلى هيئة التحكيم القضائي ليقترحوا علينا أن نختار بين التعويض المادي أو إعادة بناء منزل.

قالوا كمقدمة:

ـ بالنسبة إلى المنازل، لا بد أن تتحلوا بالصبر.

ـ ماذا يعني الصبر؟

ـ الصبر يعني الصبر.

يجيبنا الموظفون بالتعالي نفسه الذي كان للبوديستا. لم تعد النزعة الفاشية قانونًا ولكنها ما زالت بيننا، كما هي، بكل ترسانة التصلف والاستبداد، بكل الناس الذين جلبهم موسوليني والذين احتاجت إليهم الجمهورية الإيطالية الجديدة لتدفع بالبيروقراطية إلى الأمام.

خارج مكتب التحكيم نظرنا بعضنا إلى بعض في دهشة. مرة أخرى نجد أنفسنا أمام معضلة البقاء أو الرحيل، مثلما حدث عام ١٩٣٩. من يأخذ النقود يذهب إلى مكان آخر، ربما لدى بعض الأقارب أو إلى أي مكان في الوادي. ومن سيختار المنزل سيقرر أن يبقى حتى ولو أغرق الماء كل شيء.

ـ وأين سترعى الماشية؟

ـ وإذا بعناها كم سيدفعون مقابلها؟

ـ وإلى متى سيكون علينا المكوث في تلك الأقفاص؟

ـ ولماذا تبخسون قيمة مزارعنا بهذه الطريقة؟

ـ هل صحيح أن طابع البريد الذي به سترسلون أمر الإخلاء يكلف أكثر من ثمن المتر المربع لحقولنا؟

هكذا صرخنا في وجه موظفي المحكمة ذوي النظارات. ولكنهم ردوا علينا بضيق بأن لا شيء قد تقرر بعد، كانوا يرغبون فقط في معرفة كم من المنازل عليهم بناؤها. وأن علينا ألا ندفعهم لأن يستدعوا العساكر ليلقوا بنا خارجًا.

في ذلك اليوم نفسه طرق الأب ألفريد بابنا.

أعلن وخطاب الأسقف في يده قائلًا بنبرة مُحمسة وحاسمة أكثر من المعتاد: ـ سيقابلنا البابا. ستذهب إلى روما أنت أيضًا.

انفجر إيريش ضاحكًا. هو، فلاح من وادي فانوستا، في روما، مع بيوس الثاني عشر! ضحكنا. ثم استعاد الأب ألفريد رزانته، وقال من جديد: ـ ستأتي أنتَ أيضًا.

وتركه أمام الباب بعد أن أعطاه ميعادًا مبكرًا في الغد. رحل إيريش في سيارة أسقف مدينة بريسانونه، ثم من بولزانو، وصلوا بالقطار إلى روما. استقبلهم البابا في جلسة استماع خاصة. كم من المرات سألته: «وكيف كان البابا؟»، «ماذا قال بعضكم لبعض؟»، «ما شكل قصره؟»، ولكنه، على الرغم من أننا أعددنا معًا خطبة وجيزة، لم يقل أي شيء. لم يوجه له بيوس الثاني عشر كلمة واحدة. حكى لي إيريش عن الحرس السويسري الذي يزرعونه في المداخل، وعن الصالات المليئة بالأفرسك، واللوحات، وعن البُسُط، والحدائق متسعة الأركان التي تظهر خلف الستائر المُسدلة. قال لي إن البابا كان وسيمًا وأطلعني على صورة أهدوها له حيث العدسات تحيط بوجهه وكان تعبير وجهه هادئًا ولكنه لم يبدُ لي حقًّا وسيمًا. تحدثوا بالإيطالية أثناء اللقاء ولم يتعب إيريش كثيرًا في أن يتبع الحوار. ولكن طوال اللقاء ظل جالسًا على حافة إحدى الأرائك الصغيرة ينظر إلى البابا الذي كان يومئ بالموافقة. حتى أسقف بريسانونه كان صامتًا، ولكن مرة أخرى تولى الأب ألفريد إحياء الحوار الذي حتى أمام بيوس الثاني عشر كان يتحدث وهو يحرك يديه النحيفتين، وكان وجهه يسخن بقدر ما يحرقه الظلم الواقع على كورون.

قال:

ـ ظلم لن تقف أمامه بلامبالاة أيها الأب المقدس. ظلم يقع علينا بعد شر الفاشية، التي لم نتحرر منها حقًّا. عنف ـ تابع بشفتيه الحادتين وذقنه إلى الأمام ـ يُضاف إليه القتلى الذين سقطوا من شعبنا أثناء الصراع والعديد من المُشردين الذين لم ينجحوا بعد في العودة.

أشار البابا مرة أخرى بالموافقة برأسه وسألنا نحن الثلاثة أن نصلي. ولكنها مجرد بضع دقائق، ثم صرفنا وهو يردد بأنه سيتدخل. سيكتب إلى روما ليحصل على إجابة من الوزير حول إمكانية مراجعة المشروع.

وكانت عبارته الأخيرة قبل أن يصافحهم: ـ بلدتكم قريبة من قلبي.

ومرة أخرى الردهات والحراس وروما التي تظهر من خلف زجاج السيارة. وأخذ إيريش ينظر إلى البنايات والشوارع العريضة، وفي ذهنه وجه البابا الذي لم يمد له حتى يده.

جاء فلاحو كورون ليسألوه:

ـ هل سيتحدث مع الرب ليوقف أولاد الكلب أولئك؟

رد إيريش بغرابة، من دون أن يعرف ماذا يمكنه أن يضيف: ـ قال إن بلدتنا قريبة من قلبه.

الفصل الثامن

طلب مني إيريش أن أكتب خطابًا لعُمد البلدان المجاورة. فكتبت:

لا يمكنكم أن تتعاملوا كغرباء في هذه المعركة، لا يمكنكم أن تتظاهروا بالصمم أمام خطر السد. الآن حتى البابا أصبح في صفنا، يشجعنا ويوصينا بأن نظل متحدين، لا يمكنكم أن تحرمونا من دعمكم. لا بد أن تنزلوا لتتظاهروا معنا.

كل أيام الآحاد يردد الأب ألفريد علينا ألا نرحل.

وكان يحذر الجميع في نهاية القداس: «أول من يرحل سيعلن ضياع كورون وريزيا».

في البلدة يقول الناس إن الأمور تسير بشكل جيد. البابا يضعنا في قلبه، واللجنة تتولى أمر كل شيء، الكاهن والعمدة ومعهم إيريش هاوزر. الآن لم يعد في الإمكان سوى انتظار رد من روما، انتظار دعم البلدان الأخرى: الصبر حتى تحدد لجنة التحكيم قيمة التعويضات. من يدري، ربما في تلك المدة تقع حوادث جديدة، أو يُفجر أحدهم أكواخ فالّيلونجا أو على الأقل مكتب ذلك الوغد ذي السيجارة في فمه دائمًا وقبعته تغطي عينيه. ولكن آخرين يقولون إن القنابل لا بد أن نزرعها في روما وفي مقار الصحف الإيطالية التي تتجاهلنا وتعمل لحساب «مونتيكاتيني». هددتُ إيريش بألا يختلط مع من يرغب في استعمال الأسلحة. ولكن نظرًا إلى أنني لم أكن أثق به، ذهبت لأتحدث مباشرة مع الأب ألفريد. صاح وقد اشتعل غضبه:

ـ سنفقد مساندة البابا. سنفقد دعم الجميع، بالإضافة إلى دعم الرب. إذا أمسك هذا الحمار بسلاح في يده قولي له بألا يضع قدمه بعد ذلك في الكنيسة!

عندما عاد إيريش إلى المنزل نقلت إليه كلمات الأب ألفريد، فأطرق برأسه كطفل أُمسك به وهو يسرق.

حتى أيام الآحاد كان العمال يستمرون في العمل حتى منتصف الليل. الآن، من خلف محل الإسكافي، تظهر أنابيب الخراسانة المسلحة التي تبرز وكأنها الأسنان من الأرض، وكنت أشم في الهواء رائحة مياه راكدة، رائحة لم أشمها من قبل. من بعيد أخذت فرق أخرى ترفع الحواجز وتبني مصارف المياه التي

سرعان ما ستُفتح لتترك المياه تمر وتغرقنا. تظاهرنا بأننا لا نرى وكنا ندور حولها، كنا نثق بالبابا واللجنة والأب ألفريد، ولكن في ذلك الربيع لعام ١٩٤٧ كان السد خلفنا ولم يتوقف عن اتباعنا.

أخذ إيريش يعمل ليلًا ونهارًا لينظم جلسات ومظاهرات. كان يجر إلى هناك مجموعات صغيرة لا تخيف أحدًا. كان يكفي أن يحضر فلاحًا واحدًا لكيلا ييأس، ولكيلا يوهم نفسه بأن هذا يعني شيئًا. كنت أذهب معه كلما استطعت. كنت أخاف من أن يجد نفسه وحيدًا، وحيدًا مع صرخاته، ومع غضبه العاجز. كنت أريد حمايته من هجران الآخرين.

ذهبت معه أيضًا في ذلك اليوم من شهر مايو، عندما أتى أخيرًا بعض الفلاحين من ترينتيو ليدعمونا وأصبحت ريزيا وكورون لأول مرة بلدة واحدة. خرجنا مع مواشينا التي أخذت تصرخ معنا. أطلعنا العساكر والعمال ومهندسي «مونتيكاتيني»، والرب، على كل ما نملكه. أذرعنا، وحناجرنا، وحيواناتنا. ومن فوق منصة قال رئيس مُربي الماشية تلك الكلمات داخل مكبر صوت، وما زلت أتذكرها لأنها كانت مساوية لتلك التي كنت أكتبها لإيريش: «إن مصلحة المؤسسات الصناعية انقلبت ضدنا، انقلبت على حقولنا ومنازلنا. تسعون بالمائة من سكان كورون يجب عليهم ترك أراضيهم. إن طلبنا هذا هو صرخة استغاثة، أنقذونا أو سننتهي إلى الدمار».

كانت الشمس البرتقالية لتلك الظهيرة تُسخن وجوههم وتجعلهم يصوبون نظرهم إلى الأوراق المرفوعة على الأيادي المتوترة. انقطع صوته وعندما توقف صفقنا وصفرنا وأخذت الأبقار تومئ وكأنها هي أيضًا تفهم ما يحدث. وأخيرًا صرخ الناس وبكوا، خرجوا في الطرقات لينظر كل منهم إلى الآخر. أخيرًا أظهر الناس معدنهم الأصيل، أو على الأقل في ذلك اليوم لم يكن أحد يفكر في نفسه، لم يكن أحدهم في عجلة أن يعود لمنزله، لم يكن لأحد مكان يرغب في الذهاب إليه لأن نساءهم وأطفالهم وحيواناتهم، والرجال الذين كبروا معهم، جميعهم كانوا معهم، حتى إن لم يوجه أحدهم كلمة إلى الآخر، حتى وإن سبق واتخذوا خيارات مختلفة.

أشار لي إيريش إلى الرجل ذي القبعة. على جانب، ومن دون السيجارة في فمه، كان يبتسم نصف ابتسامة. يحيط به العساكر كالدرع الواقي، ولكنه كان يتجاهلهم لأنه كان يبدو كمن لا يشعر بأي ذنب.

الفصل التاسع

وصل رد الوزير، أتى ليخبرنا به محامي سيلاندرو.

قال بيأس وهو يطلعنا على الورقة لنقرأها: ـ لن يعيدوا فحص أي شيء. ستستمر الأعمال.

ذهب إيريش ليبحث عن الرجل ذي القبعة. كان لا يزال هناك في الكوخ البعيد. ظل هو فقط هناك ومعه اثنان من العساكر.

حدق فيه الرجل ذو القبعة بجدية ولكن بتعاطف: ـ ردوا عليكم فقط لأن البابا طلب هذا.

ـ والآن؟

ـ لم يتبقَّ أمامكم سوى تصرفات طائشة.

فتح إيريش عينيه الرماديتين ودخن بشراهة بينما يعيد الرجل ذو القبعة تنظيم مكتبه: ـ هل قَتْل أحد العساكر أو إطلاق النار على أحد العمال يمكن أن يغير الأمور؟

وأضاف من دون أن ينظر إليه:

ـ ربما عليك أن تقتلني أنا.

في المدرسة طلبت من كل طفل أن يكتب خطابًا يقول فيه لماذا لا يجب بناء السد. وفي نهاية اليوم جمعت كل تلك الخطابات وذهبت لأضعها أمام مكتبه. كومة من القصص وحزمة من البراءة ضد خداع «مونتيكاتيني». فتح الرجل ذو القبعة الباب فجأة وكأنني خلفه لأتجسس عليه. جمع الخطابات بيده السمينة. قال لي أن أدخل فلديه قهوة. كانت الطاولة الكبيرة المكدسة بالملفات والأوراق تفصلنا. قرأ كل سطر من كل خطاب من دون أي تعبير على وجهه. وملأ لي فنجاني.

قال وهو يعيد إليَّ حزمة الخطابات:

ـ لن تكفي الكلمات لإنقاذكم، لا هذه، ولا حتى تلك التي نُشرت على صفحات الصحف الألمانية باسم زوجك.

لأول مرة رأيت عينيه. سوداوان كالحبر. من يدري أمام من ينزع قبعته، وإذا كانت له امرأة يفتح لها تلك العينين الضيقتين.

استكمل كلماته بنبرة أدفأ:

ـ ابعدوا عن هنا، خذوا حيواناتكم إلى قرية أخرى، فأنتم ما زلتم شبانًا ويمكنكم البدء من جديد.

ـ لن يوافق زوجي أبدًا على ذلك.

فعل المدرسون الآخرون بالمثل. وتركوا حزمًا من الخطابات. نظم الأب ألفريد صلوات جماعية، مواكب، سهرات صلاة. ذهب بعض الفلاحين، مع أشخاص قدموا من شمال إيطاليا وحاولوا قطع شباك السور. وصل العساكر على الفور وصرفوهم. بعدها ببضعة أيام، وفي أضواء الفجر الأولى، استطاع الفلاحون، السابق ذكرهم، أن يحفروا أسفل نقطة التفتيش. كانوا أربعة، ألقوا بأنفسهم تحت السور ثم جروا بأقصى سرعة لهم نحو الرجال العاملين في الحفرة. أطلق العساكر الرصاص في الهواء، ولكن على الرغم من ذلك جرى هؤلاء الأربعة وألقوا بأنفسهم على العمال مثل المستعد للموت. أمر الرجل ذو القبعة بعدم إطلاق النار. بدأت معركة، سحب من الأتربة، ركلات ولكمات. كان عدد العمال كبيرًا وسرعان ما سيطروا على الفلاحين، نزعوا أسلحتهم ولصقوا وجوههم تحت أحذيتهم، وتلونت وجوههم بالأحمر من الطين والخجل.

ومن جلورينزا أرسلوا عساكر آخرين. تصاعد التوتر في الطرقات مثلما كانت الحال زمن الحرب. احتشد الناس في الطرقات وبدا السير عبر الميدان المهجور وكأن قنبلة أخرى ستنفجر بين لحظة وأخرى. الوحيد الذي تجول هو فتى نحيف طوله متران، ملتحف بمعطف فضفاض بُني اللون، ويرتدي نظارة بعدستين سميكتين. ركن سيارته بالقرب من مبنى البلدية وسار ويداه غائصتان في جيبَي معطفه وأنفه في الهواء. وصل إلى مَسْرب الفيضان ونظر إلى الأنفاق التي يغطيها الماء بالطين من الحقول. مرت فوقها الآلات تمهدها ثم زرعوا بالعشب ليمنحوا الانطباع الخادع بأن الوادي استعاد تناغمه الأصلي، وأن السد لم يفسد توازن الإقليم. توقف بعض المرات، وضع يديه في التراب ثم تركه يسقط وهو يغربله بين أصابعه. في الظهيرة تقدم إلى اللجنة، قال إنه جيولوجي سويسري وقد أتى إلى كورون ليُدين السِّرية التي لفَّت عمليات المراقبة وليبلغ عن وجود مقاولين من زيورخ خلف هذا المشروع.

قال متحمسًا:

ـ إنهم هم من أعطوا النقود لشركة «مونتيكاتيني»، وسويسرا ترفض من يدوس على رغبة الأفراد. تلك الأساليب لدينا لا يمكن حتى التفكير فيها. وعلى كل حال...

أكمل مغيرًا صوته:

ـ هذه الأرض مصنوعة من بقايا «الدولوميت»، ولا يمكن أن يكون لها أدنى درجات التماسك اللازمة. هنا في الأعلى لا يمكنهم عمل السد، لا بد، بأي طريقة، من المطالبة بمراجعة المشروع.

ثم اختتم وقد غطى البخار عدستَي نظارته: ـ الصحافة المكتوبة بالألمانية في صفكم. اطلبوا المساعدة من النمسا ومن سويسرا وليس من الحكومة الإيطالية.

نظر إليه أعضاء اللجنة أولًا بشك، ثم أخذوه إلى موقع البناء. طرق إيريش على باب الكوخ، ولكن عندما رأى الرجل ذو القبعة الجيولوجي نظر إليهم عابسًا ورفض إدخالهم. ضحك الجيولوجي مستهزئًا وجمع المزيد من التراب قائلًا إنه سيجمع عينات أخرى وسيساعدنا على نشر مقالات أخرى على صفحات الجرائد. سرعان ما ستصل إلى روما المعطيات التي تضمن فشل السد وستقنع الجميع بصحة أدلة تجاربه.

وقال قبل أن يرحل:

ـ إذا بنوه سيسقط، وسيحدث فيضان، أو لن يعمل أبدًا.

طلب مني الأب ألفريد أن أكتب إلى وزارة الخارجية النمساوية. كان خطابي الأخير، كتبت في نهايته: هذا السد خطر أيضًا عليكم. تذكروا أنه لقرون كان هذا الوادي منزلًا لكم.

لم يصلنا أي رد من فيينا. ولم يعرف أحد، عن الجيولوجي ذي المشية المتراخية، أي شيء بعد ذلك اليوم.

الفصل العاشر

أجاب عُمد البلدان المجاورة أنهم لن يدعموا أي طلب بشأن مراجعة المشروع ولن يوقعوا أي التماس يعارضه. الخلاصة أن تحويل مجرى النهر يناسبهم لأنه يجنبهم تعرض أراضيهم للفيضان.

قال لي إيريش:

ـ بماذا سيفيد إطلاق النار على جبهة الرجل ذي القبعة إذا كان غرقنا يناسب جيراننا؟

وأخيرًا سلم لي مسدسَي الجنديين الألمانيين اللذين قتلتهما: ـ احتفظي بهما يا ترينا قبل أن أرتكب خطأ فادحًا.

ـ قل لي الحقيقة، هل هناك من ينظم أي هجوم؟

ـ لا أعلم.

كررت:

ـ أرجوك لا تذهب مرة أخرى إلى الموقع. عد إلى الورشة مع ابنك واهتم بالعجول.

احتضنني ووضع أصابعه على فمي.

كانت طريقته في أن يقول لي إنه لا يستطيع.

سألني إيريش:

ـ لماذا كلما شعرت باقتراب النهاية ازداد ارتباطي البائس؟

في تلك الظهيرة كنا نقف على ضفة السد ونحن نشاهد تهجير سكان ريزيا. فجأة جردوهم من ممتلكاتهم ورأيناهم يخرجون من المزارع في مجموعات عائلية، بأجولة وأكياس وحقائب في أياديهم. ومن كان يريد أن ينقل أثاثه، لأسباب لا تُشرح، لا بد أن يفعل ذلك عن طريق مندوبي «مونتيكاتيني» بعد أن يدفع لا أتذكر كم من الليرات. وهكذا كانت المنازل التي أفرغت من عائلاتها، تظل مليئة بأدواتهم. يحمل الرجال المراتب على أكتافهم، وتحمل النساء

الأطفال على أذرعهن، وهن يحاولن النظر إلى الأمام نحو الأفق الصافي لذلك اليوم. تطفو سحب حمراء في السماء. يسير سكان ريزيا في صف، بالخطوة البطيئة للمُدانين، أمام الأنظار الغامضة للعساكر المصطفين في صفوف، بالخطوة نفسها التي سار بها من قرر الرحيل أمام الاحتلال، إلى ماليس، إلى جلورينزا، إلى بلدة براتو ألّو ستيلفيو. سيستأجرون، أو إذا حالفهم الحظ سيمكثون لدى إخوة أو أبناء عمومة، أو أقارب من بعيد. لم يرفع الأب ألفريد عينيه عمن يتركون البلدة.

أخذ يردد وهو ينظر إليهم يبتعدون: ـ الآن ضعنا بالفعل.

تتوجه العائلات التي قررت البقاء بخطوات متثاقلة نحو الكبسولات المنتشرة في فالّيلونجا. ضيقة، ومتزعزعة ومستطيلة. مصنوعة بالقوالب. بنى عمال «مونتيكاتيني» كنيسة أيضًا، وكانت تبدو كأنها محطة كهرباء مهجورة. بالنسبة إليهم كان هذا يعني تزويدنا باحتياجاتنا.

في صباح أحد الأيام عثر أحد فلاحي كورون على نصف متر من المياه في إسطبله. ماتت الدجاجات والتبن المنثور يطفو على المياه. خرج إلى الشارع وبدأ يصرخ. سارع كل من كانوا في المزارع أو المحال نحو إسطبلاتهم ونحو المخازن ووجد الجميع المياه بالداخل. وفي الميدان تشكل في وقت سريع حشد يشتعل غضبًا. جرى إيريش لينادي الأب ألفريد. حتى في قبو الكنيسة وصلت المياه حتى الرُّكب.

قال إيريش:

ـ أغلق هؤلاء الأوغاد البوابات من دون أن ينبهونا!

أمر الكاهن:

ـ لنذهب إلى ريزيا، سيكون المهندسون في مكاتبهم الآن.

بمجرد أن وصل الأب ألفريد وقفنا في صف. كنا أكثر من مائتين: شبابًا وشيوخًا، رجالًا ونساء. وسرنا نحو ريزيا. في هذا اليوم أتى أيضًا مايكل. أتى ليزورنا في إحدى زياراته المعتادة السريعة والخالية من أي غاية. منذ أن ذهب ليعيش في جلورينزا توقف إيريش عن الذهاب إلى الورشة، ونادرًا ما يرى أحدهما الآخر. ولم يعاودا التحدث بعدها.

في الطريق بدأ البعض في الغناء، وآخرون في البكاء، وبعض النساء أخذن يصرخن. وصلنا إلى ريزيا في الظهيرة، ومن بعيد، خارج الكوخ المستخدم كمعمل جيوتقني، رأينا مهندسَين من «مونتيكاتيني»، في البداية مكثا متسمِّرين ثم، عندما رأيا أننا جيش، سارعا الخطى، وفي النهاية أخذا يجريان كلِصَّي دجاج نحو منزل أحد العساكر، وأخذا يناديان اسمه. جرى فتيان الصفوف الأخيرة من المجموعة خلفهما. وانضم مايكل إليهم. أخذنا نحن نصرخ: «بائسون!». أمسك الفتيان بالمهندسَين ودفعوهما نحو الحشد الذي أحاط بهما في لحظة. صرخ الأب ألفريد ألا يتجاسر أحد ويرفع يديه.

سأل في ذلك الصمت الموشك على الانفجار: ـ هل أغلقتم بوابات السد؟

قالا بصوتين مختنقين في حنجرتيهما: ـ لم نتمكن من تحذيركم.

لم يتمكن من أن يسألهم أي شيء آخر حيث وصلت سيارتان من العساكر وتوقفتا على بعد خطوات منا. نزلوا ومسدساتهم مصوبة نحو السماء، وفرقوا الحشد. اختبأ المهندسان على الفور خلفهم، ووضعوهما على الفور داخل السيارة، أثناء ذلك استمر البعض منا في سبهم. ثم تقدموا بخطوات حاسمة تجاه الأب ألفريد. أمسكوا معصميه ودفعوه كأنهم يدفعون بمُتهم ليضعوه في السيارة الثانية التي رحلت بأقصى سرعة. أخذ الناس يصرخون ويلقون بالحجارة. أسرع الفتية بلا فائدة في محاولة إيقافهم. أخذ مايكل يصرخ: ـ متعفنون! فاشيون!

وملأ هو أيضًا يديه بالحجارة.

عندما اختفت السيارتان في نهاية الطريق وقفنا ينظر أحدنا إلى الآخر، ساكنين ومصدومين. أمسك إيريش ومايكل كل منهما يد الآخر ليمنعه من فعل أي شيء.

رأينا الأب ألفريد بعدها بيومين. ألقوا به في الحجز بتهمة تحريض السكان.

في كورون أمضينا الشهور الأخيرة مثل هؤلاء الذين لقوا حتفهم تعذيبًا بالتنقيط بالماء. نقطة تلو الأخرى، دائمًا على النقطة نفسها في الجبهة، حتى يبلى الرأس. تذكرت المرأة السمينة على الجبال عندما كانت تشجعني: «انظري، حتى اليوم لم نمُت!»، ولم يكن أحد يستطيع أن يقول أكثر من هذا. وخطر ببالي ذلك المهندس الذي أعطى أمرًا إلى العساكر بأن يضربوا إيريش. كان قد قال له: «التقدم أهم من كومة صغيرة من المنازل!». في الواقع، بالتحدث بمصطلحات التقدم، لم نكن سوى هذا: كومة صغيرة من المنازل.

بعد القبض على الأب ألفريد استولى علينا استسلام على شكل يد تغلق العينين. يقولون إن هذا يحدث للمحتضرين، والمحكوم عليهم بالإعدام، وللمنتحرين. قبل الموت يهدأون، وكأنهم محاطون بوميض سلام لا يعرفون مصدره، ولكنه يغمرهم. شعور بالصفاء، لا يحتاج إلى كلمات. لا أعرف إذا كان ذلك الاستسلام هو أعظم فخر للإنسان، أكثر حالاته البطولية، أقصى حالات الأبدية التي يمكن أن نطمح إليها، أو أنه التأكيد على جبنه الطبيعي، نظرًا إلى أنه من العبث التوقف عن التمرد قبل الموت. ولكنني أعرف شيئًا آخر، شيئًا لا دخل له بهذه القصة: في حال عودتك لم يكن حتى التفكير في تلك المياه التي ستغرقنا سيخيفنا. معك كنا سنجد القوة لأن نذهب إلى مكان آخر، لأن نبدأ من جديد.

في شهر أغسطس أتوا ليضعوا الصلبان على المنازل. صليب من الدهان الأحمر على كل المنازل التي سيفجرونها بالديناميت. ومن البلدة القديمة ظلت فقط الكنيسة الصغيرة للقديسة آنَّا، حيث بُنيت بعد ذلك كورون الجديدة. علَّموا على مزرعتنا في الفجر. بعدها بدقيقة مزرعة أمي وأنيتا ولورينز، والتي سلمها الفاشيون عام ١٩٣٩ إلى مهاجرين إيطاليين. الأخيرة التي هجرت البلدة كانت العجوز التي اسمها مثل اسمي. كانت تصرخ من النافذة بأنها ستعيش هناك وهي تقف على الطاولة ثم على السقف. كان لا بد أن يخرجوها بالقوة.

يوم الأحد ذهبنا لنجلس على مقاعد الكنيسة لحضور القداس الأخير. أتى ليقيمه عشرات من الكهنة من كل أنحاء الترنتينو، مع أسقف بريسانونه. كان قداسًا لم أسمعه. كنت مأخوذة بشدة للتصالح مع ما لا يمكن التصالح معه: الرب مع الإهمال، الرب مع اللامبالاة، الرب مع بؤس شعب كورون، الذين، كما قال الرجل ذو القبعة، كانوا مثلهم مثل كل شعوب العالم. حتى فكرة المسيح على الصليب كانت لا تتصالح مع أفكاري، لأنني كنت ما زلت أؤمن بأنه لا فائدة من الموت على الصليب، ولكن من الأفضل الاختباء، أن نصبح كالسلحفاة ونسحب رؤوسنا داخل الصدفة لكيلا ننظر إلى بشاعات ما يحدث خارجها.

بعد القداس أمسكني إيريش من يدي وأخذني لنتمشى على امتداد الضفاف. كانت الشمس ساخنة تصنع ظلالًا كبيرة وتدفع إلى الذهاب إلى الحقول. بدت تمشيتنا هذه، مجرد اقتراب من ضفاف البحيرة، إلا أنني يجب ألا أنسى، يجب ألا أنسى أبدًا، أن ما هو سد الآن كان في السابق هو المنتزه حيث كنت أنا ومايا وباربارا ومايكل نلعب بالكرة وكنتِ أنتِ تجرين دون أن تتوقفي حتى عند سماع نداء أبي.

كانت الأجراس تدق من بعيد، ومن يدري، ربما وهي تدق للمرة الأخيرة اختلف صوتها، لأنه في ذلك الصباح بدا لي أنها تدندن بموسيقى كنت أستعيد بها حياتي في كورون، حياة قاسية ولكنها محتملة لأنه حتى الآلام الأكثر بشاعة مثل اختفائك، عشتها مع أبيك، ولم أشعر قَطُّ بأنني هُزمت إلى حد الرغبة في أن ألقي حياتي إلى الكلاب. سألونا ذلك اليوم ماذا كانت كبرى رغباتنا، أجبنا بأن نستمر في الحياة في كورون، في تلك البلدة الخالية من الإمكانيات التي هرب منها الشباب ولم يعُد إليها الكثير من الجنود. أن نبقى بلا أي رغبة في معرفة شيء عن المستقبل، ولا أي يقين آخر. فقط أن نبقى.

الفصل الحادي عشر

عندما وضعوا الديناميت في المزارع كنا بالفعل قد انحشرنا في الأكواخ. دَوي الديناميت يختلف عن القنابل. فهو دَوي مكتوم، يغطيه بسرعة دَوي سقوط الجدران، والأساسات التي تتهشم، وتُفتت الأسقف. إلى أن تبقى فقط أعمدة من الأتربة.

شاهدنا التنفيذ من ثقبنا الصغير. كتم إيريش أنفاسه، وعقدت أنا ذراعَي. عند تدمير المنازل الأولى، انكمشت بجواره، ثم بعدها شاهدت سقوط المنازل الأخرى من دون حتى أن أكتم أنفاسي. حتى ظل فقط برج الجرس الذي أمرت سلطات روما أن يتركوه. استغرقت المياه عامًا كاملًا لتغطي كل شيء. صعدت ببطء، بلا توقف، حتى وصلت إلى منتصف البرج الذي ظل منذ تلك اللحظة مرتفعًا على سطح المياه كأنه جذع أحد الناجين. قبل أن يذهب إلى النوم في تلك الليلة قال لي إيريش إن علينا الذهاب إلى مصرف بولزانو لنتسلم حصة النقود المخصصة لنا مقابل المزرعة والحقل، ولكن كانت مصاريف الذهاب إلى المدينة أكبر مما ادخرناه.

رحل الكثيرون. ومن مائة عائلة تقريبًا ظل فقط ثلاثون. حتى ورشة مايكل للنجارة انتهى أمرها في قاع المياه.

بالنسبة إلينا، من بقوا، جهزت شركة «مونتيكاتيني»، بالإضافة إلى الأكواخ، إسطبلًا جماعيًّا فيه كانت الحيوانات تركل بعضها الآخر باستمرار. ونظرًا إلى أن المياه أغرقت الحقول، قرر إيريش أن يأخذ البقرات والعجول إلى المجزر. اصطحبته في الطريق النازل نحو سان فالانتينو، وعلى جانبنا تتبعنا ضفاف السد. أتى فليك خلفنا، منهكًا يئن. كان عجوزًا يمشي وكأنه أعرج. يعوي باستمرار لنحكي له، وينظر إلينا دائمًا بعينين متعبتين. تسير العجول مربوطة الواحد في الآخر في صف متلاصق وتحدق قلقة في المياه. وخلفها، تلحق بها البقرات بخطوات ثقيلة وجوانب متأرجحة، وفي النهاية الغنم.

قال إيريش للجزار وهو يشير إلى فليك:

ـ خذه هو أيضًا.

نظر إليه الجزار من دون أن يرُد. مد إيريش له بعض النقود، وكرر:

ـ من فضلك، خذه هو أيضًا.

جذبته من ذراعه، وأنا أكرر عليه ألا يفعل ذلك، إلا أنه قال بقسوة إن ذلك أفضل.

عدنا أدراجنا بلا أي شيء. كانت السماء بلون الحليب، تعبرها سحب سوداء، تلك التي تجلب العواصف الصيفية. لا أعرف كيف ولكن اعتدنا بسرعة على الحياة في أربعة وثلاثين مترًا مربعًا، وهي المساحة المخصصة لكل عائلة، بغض النظر عن عدد أفرادها. بالنسبة إليَّ لم يضايقني هذا النقص في المساحة. التعرقل أحدنا في الآخر، أو وجوب النظر في الوجه عندما نتشاجر، والنظر من النافذة نفسها هو كل ما أردته، وكان كل ما تبقى لنا.

في العام التالي ابتعنا تلفازًا. وكنا ندعو الجيران لمشاهدته يوم السبت حتى لا نمكث دائمًا بمفردنا. عندما يخرج إيريش أترك المذياع مفتوحًا، على درجة من الصوت منخفضة جدًّا فيبدو كالنحيب. تلك الخلفية تشغلني بعض الشيء عن أفكاري المعتادة التي لم أعد قادرة على منحها اسمًا.

استمررت في الذهاب إلى المدرسة، لتدريس الكتابة ولقراءة القصص، وربط أزرار المرايل. من حين إلى آخر تسحرني طفلة ما، أنظر إلى عينيها وأراقب طريقتها في الابتسام، وأتساءل عنكِ.

ولكن الآن نادرًا ما يحدث ذلك، أصبحت صورتكِ تفر مني، لم أعد أتذكر نبرة صوتك جيدًا. كنتِ مثل طيران فراشة، بطيئًا ومترددًا ولكن من الصعب الإمساك به.

عندما تمطر في الخارج يجلس إيريش وكوعاه على ركبتيه ووجهه بين يديه ينظر إلى الجدار. أردد أنها مسألة صبر، سرعان ما سيبنون لنا منزلًا حقيقيًّا، ولمن مثلنا ممن فقد عمله سيدفعون له تعويضًا لمساعدته. هكذا كانوا يقولون لنا في البلدية وفي المقاطعة وفي الإقليم. ولكن مر وقت طويل قبل أن أدخل إلى هنا، في ذلك المنزل ذي الحجرتين الذي سلموه لي. ولم نحصل قَطُّ على أي تعويض. لم يرَ إيريش هذا المنزل، لأنه مات بعد ما حدث بثلاثة أعوام، في خريف عام ١٩٥٣. مات أثناء نومه، مثل أبي. قال الطبيب إنه كان مريضًا بالقلب، ولكنني أعرف أن الاستنزاف هو ما قضى عليه. نموت فقط من الاستنزاف. الاستنزاف الذي يتسبب فيه الآخرون ونجلبه على أنفسنا، وتجلبه علينا أفكارنا. لم تعد لديه ماشيته، وغرق حقله، ولم يعد فلاحًا، ولم يعد يسكن في بلدته. لم يعد ذلك الذي أراد أن يكونه، والحياة، عندما يصعب التعرف عليها، تهلكنا بسرعة. ولا يكفينا حتى الرب.

الكلمات التي تعود إلى ذهني كثيرًا قالها لي في صباح أحد أيام الربيع، عند عودتنا من جولتنا. انخفضت المياه فجأة وعادت لتبرز من جديد، لبضع ساعات، الجدرانُ القديمة، والمراعي المغطاة بالعشب والرمل. أخذني إيريش من يدي وقادني إلى النافذة.

قال لي بصوت بريء:

ـ اليوم يبدو لي أنه لم تعد هناك مياه في أي مكان. أرى مرة أخرى البلدة، النافورة والأبقار تقف في صف لتروي عطشها، وحقول الشعير الممتدة، وحقول القمح وفيها فلوريان ولودفيك والآخرون يحرثونها.

ولوهلة بدا لي أنه ما زال الشخص نفسه الذي كنت أتلصص عليه من خلف الباب في منزل أبي، بشعره الأشقر المتدلي، ضد رغبته، على عينيه.

بعد موته نزعت الدفتر الذي أطلعني عليه في تلك الليلة من سترته. نظرًا إلى أننا لم يعد لدينا كومودينو لجواربنا، كان يحمله معه في كل مكان. وجدت فيه رسومات جديدة. طفلة تلعب على الأرجوحة، وواحدة تنام على ذراع، طفلة تبدِّل على دراجة وشعرها يتطاير في الهواء. أحيانًا أشك في أن هذه الطفلة هي أنت، أقول لنفسي إنها ابنة مايكل التي من حين إلى آخر كان إيريش يشعر برغبة في رؤيتها وفي أن يأخذها معه في نزهة. كان يحب أن يسمعها تناديه «جدو» ويذهب معها ليلقي بالحصى في المياه. لا أعرف إذا كان أثناء وجوده معنا كان يراكِ، وهو الذي، كما كان يقول، يفكر فيكِ من دون أن يفكر.

بالإضافة إلى ذلك الدفتر وكومة من الصور وعلبة ثقاب قديمة، لم يعد لي شيء آخر منه. ولا حتى تلك القبعة ذات الواقي المثني إلى أعلى التي كان يرتديها دائمًا في شبابه. تركت ثيابه عند شاحنة تمر كل حين لتجمع ملابس وأحذية لإرسالها إلى الفقراء في مناطق أخرى من العالم. ربما الطريقة الوحيدة للاستمرار في الحياة هي عمل شيء آخر، هي عدم الاستسلام والبقاء ثابتين. بعض الأيام أشعر بالندم على ذلك، ولكنه شيء يحدث لي طوال حياتي. فجأة أبدأ في التخلص من الأشياء. أحرقها، وأمزقها وأبعدها عني. أعتقد أن هذه هي طريقتي لئلا أفقد عقلي.

هنا في الخلف، أعلى البلدة القديمة، يوجد قبره في مدفن صغير يطل على البحيرة الصناعية. قبلها بأيام، قبل أن يضعوا الديناميت في المنازل، ذهب أحد رؤساء العمال إلى الأب ألفريد ليقول له إنهم سيغطون منطقة المدافن بالقطران. عندئذٍ أمسكه الأب ألفريد من رقبته وأجبره على الركوع أمام الهيكل، وتكرار ما قاله أمام المصلوب. ثم دفعه إلى خارج الكنيسة وجرى

ليستدعي إيريش. للمرة الأخيرة مر إيريش على كل الفلاحين. للمرة الأخيرة، اجتمع الناس، حتى من كانوا يغلقون الباب في وجهه ويبصقون عليه، اجتمعوا أمام الكنيسة، ليصرخوا بأنه لا يمكن أن يُدفن موتاهم مرة أسفل الأسفلت ومرة أخرى تحت المياه.

بقوا في الميدان حتى وقت متأخر من الليل، حتى نزل الرجل ذو القبعة من سيارة العساكر. وبصوته البارد وعد بأنه سيجد لهذا حلًّا. وفي اليوم التالي، وبالأقنعة تغطي وجوههم، وبملابس واقية من المطر، ومضخات المعقمات على رقابهم، أخرجت مجموعة من العمال، أرسلتها البلدية، الأجساد ونقلتها إلى هنا في الأعلى، إلى كورون الجديدة. ولكي يضعوا الأجساد في مساحات أقل، نقلوها في حاويات صغيرة للعظام وصناديق أطفال. بعد عدة أعوام عندما مات الأب ألفريد، دفنوه بجوار إيريش. وعلى شاهد قبره كتبوا:

ليمنحه الرب أفراح السماء.

لم أكتب شيئًا على ذلك الذي لأبيكِ.

في الصيف أذهب لأتمشى قليلًا بالقرب من البحيرة الصناعية. ينتج السد القليل جدًّا من الطاقة التي يكلف ابتياعها من المراكز النووية الفرنسية أقل بكثير. في خلال بضعة أعوام أصبح جرس الكنيسة البارز من المياه الميتة منطقة جذب سياحية. كان المسافرون في البداية يمرون من أمامه مدهوشين، ثم بعد قليل يشردون. يلتقطون صور جرس الكنيسة خلفهم وهم يبتسمون جميعًا الابتسامة البلهاء نفسها. كأن تحت تلك المياه لا توجد جذور أشجار «لاركس» عجوز، وأسس منازلنا، والميدان الذي كنا نتجمع فيه. وكأن التاريخ لا وجود له.

اتخذ كل شيء مظهرًا طبيعيًّا غريبًا. على حواف النوافذ والشرفات عادت زهور الجيرانيوم وعلى النوافذ علقنا ستائر من القطن. تشبه المنازل التي نسكنها الآن تلك الموجودة في قرى الألب الأخرى. في الطرقات، عندما تنتهي العطلات، يسود صمت غير واضح لا يخبئ أي شيء. فالجروح التي لا تشفى إن عاجلًا أو آجلًا تتوقف عن النزيف. والغضب، حتى ذلك الذي سببه عنف وقع عليك، مصيره، مثل أي شيء آخر، أن يخفت، وأن يفسح الطريق لشيء أكبر لا أعرف اسمه. لا بد أن نتعلم أن نسأل الجبال لنعرف هويته.

حدث تدمير البلدة مكتوب باختصار داخل صندوق عرض خشبي في موقف السيارات الخاصة بحافلات شركات السياحة. توجد فيها صور كورون القديمة، المزارع والفلاحون مع ماشيتهم، وصورة الأب ألفريد وهو يقود المسيرة

الأخيرة. في إحدى الصور يظهر أيضًا إيريش ورفاقه في اللجنة. صور قديمة أبيض وأسود موضوعة تحت زجاج لوحة عرض، مع بعض الشرح بالألمانية ومترجَم بإيطالية تقرب الفكرة. يوجد أيضًا متحف صغير يُفتح بعض الأحيان للقليل من السياح الفضوليين. ومن ذلك الذي كُنَّاه، لم يبقَ شيء.

أنظر إلى الزوارق التي تشق المياه، والمراكب التي تلمس الجرس، والسباحين الممددين في الشمس. أراقبهم وأحاول أن أفهم. لا يمكن لأحد أن يفهم ما يوجد فيما وراء الأشياء. لا يوجد وقت للتوقف والنوح على ما كان له وجود قبلنا. لا بد من التقدم، كما كانت تقول أمي، إنه الاتجاه الوحيد المُتاح لنا، وإلا لكان الرب قد وضع لنا أعيننا على جانبَي رؤوسنا، مثل السمك.

النمسا
ريزيا
كورون
سان فالانتينو
سويسرا
ألب فينوستا
ماليس
جلورينزا
سلوديرنو
سيلاندرو
كاستيلبيلُّو
ميرانو
بولزانو

ملحوظة

المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى كورون فينوستا («جراون إيم فينشجاو» بالألمانية) كانت في أحد أيام صيف عام ٢٠١٤. في ساحة انتظار كانت الحافلات تترك الزوار، وبجوارها تصل حشود من الدراجات البخارية. يوجد جسر صغير وهو المكان المثالي للتصوير مع الجرس في الخلفية. الصف هناك، لتصوير «السيلفي»، طويل دائمًا. ذلك الصف بالناس المُسلحة بهواتفها المحمولة كانت الصورة الوحيدة التي نجحت في أن تبعدني عن منظر الجرس الغارق والمياه التي تخفي أسفلها قريتَي ريزيا وكورون. لم أستطع العثور على شيء يمكن أن يبرِز بوضوحٍ أكثر عنفَ التاريخ.

منذ ذلك الصيف عدت مرات عديدة إلى كورون، وعندما كنت أبتعد تصحبني فكرة وصورة تلك البلدة الجبلية على حافة الحدود السويسرية النمساوية بلا توقف. لمدة سنتين درست كل ما استطعته، كل نص ووثيقة عثرت عليها. طلبت مساعدة مهندسين، ومؤرخين، وعلماء اجتماع، ومدرسين وأمناء مكتبات. وبالأخص استمعت إلى الكثير من الشهادات، لكبار السن، الذين عاشوا تلك الأعوام العنيفة. أردت أن أُجري حوارًا أيضًا مع أحد من شركة «إديسون» ـ شركة «مونتيكاتيني» في السابق، الشركة الكبيرة التي بنت السد ـ ولكن لم يهتم أحد على الإطلاق بأن يقابلني، ولا بأن يجيب على رسائلي ولا مكالماتي. شيء مؤسف لأنه كان يهمني كثيرًا الاطلاع على أرشيفهم وطرح بعض الأسئلة. (على سبيل المثال: كيف ولماذا مات ٢٦ عاملًا أثناء العمل؟ وكيف قُيمت العواقب الاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمن جردوهم من ملكياتهم؟ هل تعترف الشركة بالمسؤوليات الأخلاقية والمعنوية في طرق التواصل التي جرت مع السكان نظرًا إلى أنها حدثت بلغة لا يفهمونها؟ هل صحيح، كما جاء في صحيفة «دولوميتن» في عدد ٧ سبتمبر عام ١٩٥٠، أن بعد إغراق ريزيا وكورون بعشرة أيام نظمت شركة «مونتيكاتيني» سباقًا للمراكب الشراعية في البحيرة؟).

مع قصة كورون كثيرًا ما تقاطعت قصة ألتو أديجي-جنوب تيرول، على الرغم من معرفتي أن تلك البلدة، مثل جميع البلدات، كانت صغيرة وعلى الحدود، ولها ديناميكية خاصة أكثر. بالإضافة إلى أن تاريخ تلك المقاطعة، كان التاريخ الوحيد في أوروبا الذي فيه تتابع من دون استمرارية حكم الفاشية والنازية، على الرغم من وجود العديد من النصوص الآن، حتى الروائية التي تتحدث عن هذا، فإنها في رأيي صفحة من تاريخ إيطاليا، ليس مؤلمًا ومتناقضًا فقط، بل ما زال هناك ما يقال بشأنه.

بالنسبة إلى حدث السد تتبعت الخطوات الأساسية التي تبرز في الببليوجرافيا ومن الشهادات، وذلك من خلال وضعها في إطار روائي وحكي المراحل البارزة منها فقط. التعديل الذي حدث لجغرافيا الأماكن وموقع الأحداث، ووضع بعض الصفحات الخيالية كان بالتأكيد لضرورات روائية. فالرواية، بطبيعة الحال، لا يمكنها أن تستغني عن الاصطناع والتحويل. إذن، فكما هي العادة لا بد من التصريح بأن الشخصيات من صنع الخيال وأي إحالة إلى أشخاص أو أشياء هو بمحض الصدفة. كان من الضروري استخدام بعض الإحالات لأشخاص تاريخيين مذكورين (منهم الأب ألفريد، وهو شخصية مستوحاة من الراعي ألفريد رايبر، كاهن كورون لمدة خمسين عامًا تقريبًا)، ولكن مثلهم مثل الأحداث المروية، فهم لا يبدون لي منقولين كما هم في الحقيقة، ولكن جرت غربلتهم من خلال إبداعي الحر.

بالنسبة إليَّ، ولكن ربما يحدث أيضًا لكتاب آخرين، لم تكن تهمني الأحداث الخاصة بتاريخ ألتو أديجي، ولا تلك الخاصة بإحدى المدن العديدة التي سحقتها المصالح السياسية الاقتصادية التي لا يمكن تغييرها بواسطة أشخاص عاديين (التي لا بد من تحليلها من خلال رؤية ذات منظور أكبر وأكثر حيادية من ذلك الروائي). أو الأفضل أن نقول، تلك الأحداث تهمني، ولكن كنقطة انطلاق. إذا كانت قصة هذه الأرض أو قصة السد لم تبدُ لي قادرة، على الفور، على أن تستضيف قصة أكثر حميمية وشخصية، يمكن من خلالها تصفية التاريخ، وإذا لم تكن قد بدت لي، في لحظتها، ذات قيمة عامة أكبر للتحدث عن الإهمال، وعن الحدود، وعن استغلال السلطة وعنفها، وعن أهمية الكلمات وقدرتها، بغض النظر عن وقعها السحري عليَّ، لما كنت وجدتها مثيرة بالدرجة الكافية لدراسة تلك الأحداث وكتابة الرواية. كنت أنا أيضًا سأقف هناك، بفم مفتوح أنظر إلى الجرس الذي يبدو وكأنه يطفو على المياه، سأتطلع من فوق الجسر الصغير لأحاول أن أرى ما تبقى من ذلك العالم تحت مرآة البحيرة، ثم سأفعل مثل الجميع، وأرحل.

م. ب.

شكر وعرفان

سأكتفي بقائمة الشكر التي لا يمكن الاستغناء عنها لأن قائمة الشكر الخاصة بهذا الكتاب طويلة جدًّا. قبل كل شيء، ألكسندرا شتيشر على نصها الثمين جدًّا:«Eingegrenzt und Ausgegrenzt: Heimatverlust und Erinnerungskultur»ومن أجل استعدادها دائمًا للمساعدة. إليزا فينكو لأنها ساعدتني أكثر من مرة للترجمة من الألمانية، والفاضل ألبريشت بلانجر لأنه نظم لي جولة في ريزيا وكورون لأقابل عددًا من الخبراء ومن أدلوا بشهاداتهم، وكارلو روميو من أجل الاستشارات التاريخية والاقتراحات البليوجرافية الثمينة، والأستاذة ليتيزيا فلايم لأنها عرفتني، من خلال كتابها (الذي كتبته بالاشتراك مع ميلينا كوستيو): «Scuole clandestine in Bassa Atesina: 1923-1939» على ببليوجرافيا أساسية عن المدارس السرية. وشكر خاص لفلوريان إيلر، وأكثر من الجميع للودفيج شوبف، المعلم ومنجم المعلومات حول هذا الحدث، بالإضافة إلى أنه مترجم رائع سمح لي بأن أتواصل مع الشهود ومع لغتهم. أشكر مدير أعمالي بيرجوروجو نيكولاتزيني، لتحفظه وانتباهه وهو يتابع المشروع ويدعمني. شكر لا متناهٍ لكل الأصدقاء الذين قرأوا الرواية قبل النشر ولكل ملحوظاتهم ونقدهم. وخاصة إيرينه باريكيلّو، ألبرتو شيبيلّي، فرانشسكو باسكواله وسيتفانو رايموندي، الذين تابعوا نسج الرواية خطوة بخطوة.

أشكر كالعادة آنّا التي تعرف كيف تُخرج مني كلمات لم أكن أعتقد أنه في إمكاني العثور عليها.

المؤلف

ماركو بالزانو، كاتب إيطالي ولد عام ١٩٧٨ ويعيش في ميلانو. يدرِّس الأدب في مدرسة ثانوية، ويشارك بانتظام في الصفحة الثقافية لجريدة «كوريير ديلّا سيرا». صدرت له روايات ومجموعات قصصية ودواوين شعر، وحصد كل عمل من أعماله جوائز عديدة. وترجمت كتبه إلى لغات كثيرة. «سأبقى هنا» هو أول عمل له يترجم إلى العربية.

المترجمة

أماني فوزي حبشي، ولِدت في القاهرة عام ١٩٦٨، وحصلت على ماجستير في الترجمة، ودكتوراه في الأدب الإيطالي، من كلية الألسن جامعة عين شمس.

حصلت على الجائزة الوطنية الإيطالية للترجمة عام ٢٠٠٣، وعلى وسام نجمة إيطاليا برتبة فارس عام ٢٠٠٤ لإسهاماتها في نشر الثقافة الإيطالية. وشاركت بعدد من المقالات والأبحاث الخاصة بالثقافة الإيطالية والترجمة نُشرت في الصحف والمجلات المصرية المختلفة. أسهمت في تأسيس صفحة «المقهى الثقافي الإيطالي» عام ٢٠١٧، وهي صفحة تعمل كببليوجرافيا للأعمال المُترجمة من اللغة الإيطالية إلى اللغة العربية.

ترجمت لدار الكرمة «أصوات المساء» لنتاليا جينزبورج، و«أربطة» لدومينيكو ستارنونه، و«لن نقدم القهوة لسبينوزا» لآليتشه كابالي. ومن أهم ترجماتها الأخرى: «بندول فوكو» لأومبرتو إيكو، و«ثلاثية أسلافنا: الفسكونت المشطور، البارون ساكن الأشجار، وفارس بلا وجود» لإيتالو كالفينو، و«بلا دماء» لأليساندرو باريكو، و«اذهب حيث يقودك قلبك» و«صوت منفرد» لسوزانا تامارو.

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.

٢. سالباتييرَّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.

٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.

٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.

١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.

١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.

١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.

١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.

١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٢٥ . مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.

٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.

٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.

٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.

٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.

٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٣٨. اترك العالم خلفك - رمان عَلم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٩. بندقية صيد - ياسوشي إينويه. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٤٠. لن نقدم القهوة لسبينوزا - آليتشه كابالي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤١. سأبقى هنا - ماركو بالزانو. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

الهوامش

(1) أي الحاكم الفاشي؛ لقب «بوديستا» يطلق على أعلى رتبة حكم مدني في ظل نظام الفاشية. (المترجمة).

(2) واحدة من وسائل التعذيب أثناء الحكم الفاشي. إجبار الشخص على شرب كميات كبيرة من زيت الخروع التي تتسبب في أن يصاب بالإسهال، يُربط سرواله بالحبل حتى ينتهي به الأمر لأن يتبرز في ملابسه ويسير هكذا وسط الناس لإذلاله. (المترجمة).

(3) قوات الدفاع الألمانية. (المترجمة).

(4) السيدات العلمانيات اللاتي قررن تكريس أنفسهن لخدمة الكنيسة. (المترجمة).